الدكتور صلاح محاجنة

مطلق عبد الخالق
شاعر فلسطيني أغفله التاريخ

إصدار
مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها
أكاديمية القاسمي
2010

فهرست

مقدمة 1

تمهيد 4

الفصل الأول: مطلق عبد الخالق، شخصيته وسيرته 6

مقدمة 7

اسمه، عائلته، مولده ونشأته 7

دراسته 8

حياته العملية في حيفا 8

العلاقات الاجتماعية 9

شاعريته وشعره 10

رسالته الأدبية 11

في ذكرى الخمسين 11

وفاته 12

الفصل الثاني: رحلة في الديوان – المضمون 13

البعد الوطني 14

الخلفية السياسية 14

الوطن والوطنية 16

فلسطين الوطن 20

الأغراض الشعرية 26

الرثاء 26

الغزل والحب 32

الطبيعة 40

الأجواء النفسية 45

فلسفته الحياتية 45

التشاؤم والكآبة 49
الاضطراب النفسي 60
المرض 63
بيئة الشاعر الاجتماعية 67
الخلفية الاجتماعية 67
الخلفية الأدبية والثقافية 69
الجانب الانساني 73
آفات اجتماعية 79
الفصل الثالث: مؤلفات 85
ديوان "الرحيل" 86
ضجعة الموت 86
الكتابات النثرية 93
الفصل الرابع: الشكل والأسلوب 95
اللغة الشعرية 96
الموسيقى الشعرية 113
الفصل الخامس: ملحق : الكلمات التأبينية 117
الشعراء 118
رجال السياسة 123
جمعيات ومنظمات 126
كلمات الأصدقاء 128
آراء الصحف 133
شخصيات اجتماعية 136
خاتمة البحث 140
المراجع والمصادر 142

مقدمة

وجد العرب في شعرهم القديم سجل مآثرهم ومفاخرهم، وكان للشعر دائمًا دور حاسم في تاريخهم، وقد ازدادت أهمية الشعر في هذا العصر، لاسيما وأنه بات فنًا للحياة، وسلاحًا في المعركة، ورباطًا متينًا يربط الشاعر في الواقع[1].

إن اختياري لكتابة هذه الدراسة عن الشاعر النصراوي مطلق عبد الخالق، جاء ضمن اهتماماتي بالأدب العربي الحديث، وضمن منطلقات متباينة، أحصرها في النقاط التالية:

1. لقد تصدى للشعراء الذين عاصروا الشاعر مطلق عبد الخالق مثل عبد الرحيم محمود، أبو سلمى، وإبراهيم طوقان – وكانوا جميعًا على صلة مع بعضهم البعض – نقاد كثيرون بالبحث والدراسة في حياتهم وبعد وفاتهم، لكنهم تجاهلوا الشاعر الموهوب مطلق عبد الخالق، ولم يكتب عنه حتى الآن شيء ذو قيمة أدبية، بعد مرور ثلاثة وسبعين عاما على وفاته.
2. وبقدر ما أسعفني الوقت والقدرة على البحث والاطلاع على ما كتب عن هذا الشاعر، فإنني لم أجد إلا الشيء اليسير جدًا، وتبلورت لدي قناعة، أنه تم تجاهله بلا قصد، وأنه لم يجد راعيًا يسوق وينشر كتاباته الشعرية والنثرية.
3. قناعتي وإيماني المطلق بالأدب الملتزم والمقاوم، نثرًا أم شعرًا. ذلك الأدب الملتزم بقضايا الوطن وهمومه من أجل رقيه ونهوضه وتقدمه. هذا الشعر اهتم به الشاعر مطلق عبد الخالق مع العديد من الشعراء الفلسطينيين مثل إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، الذين كافحوا من اجل قضية الإنسان كإنسان في وطن مُستَعمَر ومعذب، من أجل الحرية والكرامة والاستقلال.
4. مطلق عبد الخالق شاعر عاش في أسرة ثرية وعريقة، لكن هذا الثراء والمركز الاجتماعي لم يثنياه عن معالجة مشاكل شعبه وقضاياه، والاشتراك مع الناس في المقاومة والتصدي للمستعمر بحماسة فائقة، فانعكس ذلك في شعره الصادق الشفاف، دون زيف أو رياء.

---

[1] عطوات، محمد، **الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر**، بيروت 1998. ص.139.

وإذا ما تتبعنا قائمة المتحدثين والمشتركين في تأبين الشاعر في ذكرى الأربعين، وجدنا أن القائمة تضمنت شعراء بارزين، ورجال فكر مرموقين، ورجال سياسة، واقتصاد، ومجتمع، ونضال وطني، من أبرز ما عرفتهم فلسطين في ذلك الوقت.

فشاعر كهذا الذي تمتع بهذه الشهرة، لم ينل حظًا وافرًا من قِبل الكُتاب والنقاد، والأدباء في تقديمه للقارئ العربي، خاصة وأنه نظم شعرًا في معظم الأغراض: قصائد وطنية، واجتماعية، وسياسية، وغزلية، ورثائية، وتاريخية. بيد أن يد المنون اختطفته وهو لا يزال في ريعان الشباب، ولو أمهله القدر لكتب ونظم الكثير من القصائد والمقالات.

حاولت أن أتعرف على بواعث هذا التجاهل والإغفال للشاعر مطلق عبد الخالق، فلم أجد مصدرًا موثوقًا أتكئ عليه، ولكن من خلال اطلاعي على إنتاجه، والتقائي بأقاربه في الناصرة، والتحدث إلى أدباء مختصين في تلك الحقبة من الزمن، توصلت إلى عدة حقائق التي سأورد بعضًا منها في هذه المقدمة، والبعض الآخر يظهر في الدراسة نفسها:

1. كان مطلق عبد الخالق شاعرًا موهوبًا من غير شك، ولو لم تختطفه يد المنون، لأضاف شيئًا من الأصالة إلى الشعر الفلسطيني، ولأحدث تغييرًا جوهريًا في شكل ومضمون القصيدة الفلسطينية، غير أن الشعراء الآخرين لم يتأثروا بشعره، وذلك من جهة الكم وليس الكيف.
2. بسبب طغيان الطابع السياسي على الشعر الفلسطيني في ذلك الحين، أكثَرَ الشعراء من كتابة الشعر السياسي والوطني، نظرًا لدقة الموقف وحساسية المرحلة التي كان يمر بها الشعراء الفلسطينيون الذين مضوا يكتبون ضمن تراث الواقعية الذي استنه الشاعر إبراهيم طوقان.

مع أن رحيله عن هذه الدنيا ظلّ سرًا خفيًا، إلا أن الشاعر الذي عاش سبعة وعشرين عامًا، ساهم مساهمة كبيرة في الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية والصحافية، وبالرغم من صغر سِنّه، وقلة الإمكانيات، إلا انه نشر ديوانًا بمشاركة الدكتور داهش بك بعنوان "ضجعة الموت". ونشر مقالات وقصائد كثيرة على صفحات الصحف التي عمل فيها وهي كثيرة، فضلا عن ما نشره شقيقه صبحي عبد الخالق "ديوان الرحيل" بعد رحيله عن هذه الدنيا.

حديثنا عن الثلاثينيات من القرن الماضي، ونحن بصدد شاعر يستحق منا كل التقدير لما قدمه للقارئ العربي والمكتبة العربية. وتقديرًا لإنتاجه الأدبي ونشاطه السياسي، قامت منظمة التحرير الفلسطينية بتكريمه ومنحه وسام القدس للثقافة والفنون عام 1990.

انطلاقًا من هذه الرؤيا، قررنا أن نتناول هذا الشاعر بالبحث والدراسة، والتنقيب، اعتمادًا فقط على ما كتَبَهُ عنه الآخرون، لأخرُج بكتاب متواضع عن هذا الشاعر، الذي أغفله أصحاب الاختصاص، وأقدّم للقارئ العربي مادة تفيده في الاطلاع والدراسة عن هذا الشاعر والفترة الزمنية التي عاش فيها.

وإنني إذ أقدم هذا الكتاب، لا أدعي أنني أحطت بكل جوانب حياته، وشعره، ونثره إحاطة عميقة وشاملة، بل بقي الكثير بحاجة إلى الدراسة من الباحثين، وإبراز هذا الشاعر بكل قدراته وطاقاته، وحاولت قدر الإمكان الالتزام بالموضوعية والشُّمول والتماسك، لا سيما وإنني نهجت في بحثي هذا المنهجية العلمية.

يشتمل الكتاب على عدة فصول رئيسية، بالإضافة إلى مقدمة وتمهيد، وكلمة للدكتور ياسين كتانة. في المقدمة تناولت أسباب اختياري لهذا البحث، ثم ذكرت الصعوبات التي واجهتني، أما التمهيد فقد كرسته للمحات عن نهضة الشعر في فلسطين في العقود الثاني والثالث والرابع من القرن العشرين.

تمهيد

برز في القرن العشرين شعراء وكتاب فلسطينيون كُثر، وفي مقدمتهم الشعراء: يوسف النبهاني، برهان الدين العبوشي، مطلق عبد الخالق، محمود درويش، راشد حسين، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود وأبو سلمى.

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وتم تقسيم بلاد الشام إلى قسمين تحت الإدارة البريطانية والفرنسية، نكثت بريطانيا وعودها للعرب وأخذ أهل فلسطين يعلنون الثورة تلو الثورة، وكان أعظمها ثورة 1936-1939.

إن الأحداث السياسيةالتي اضطرمت بها فاسطين، وماكتنفها من عوامل اجتماعية واقتصادية، وما نتج عنها، أحدثت نهضة عامة في الثقافة والفكر والأدب بوجه عام، والشعر بوجه خاص. وبدأت أثار ذلك تظهر ابتداء من عام 1926، أو من بداية الربع الثاني من القرن العشرين[1]، ولما كان الشعب الفلسطيني يتمتع بحيوية وقدرة على التطوير في مختلف مجالات حياته، فقد اضطلع بواجب الجهاد في سبيل الحرية، واهتم بالتطوير العلمي والأدبي، لا سيما الشعر الذي أصبح سلاحاً يذود به الشعراء عن الحمى.

ابتداءً من عام 1926 تقريبًا بدأ الشعر نهضته، ولم يتحرر من القيود التي كبلته في المرحلة السابقة وينعتق من قيود الزخارف اللفظية أو المحسنات البديعية فحسب، وإنما انتقل من الصورة المتخلفة القبيحة التي كان يجري عليها في العصر العثماني، إلى صورة موضوعية معبرة عن الأحداث المختلفة، وعن معاناة الشعب من ظلم الانتداب، وبطشه، وعن البطولات التي سطرها أبناء فلسطين في كفاحهم المستمر، فضلاً عن تعبير الشعراء عن نوازع نفوسهم وانفعالاتهم في الشؤون الخاصة والعامة من أفراح وأتراح. ويتضح جليًا انه توافر لهؤلاء الشعراء من مقومات الثقافة، ووسائل المعرفة، والاتصال بالتيارات الحديثة ما لم يتوافر للشعراء الذين سبقوهم، حيث

[1] كامل السوافيري، **الأدب العربي المعاصر في فلسطين**، ص56.

أنهى بعضهم الدراسات العليا في الجامعات، وتمكنوا من بعض اللغات الأجنبية، إلى جانب اللغة العربية، واطلعوا على تيارات النقد، ومظاهر الأدب في الغرب وما استحدثه من فنون في الشعر.

يقول كامل السوافيري عن هذا الشعر:" لم يعد مجرد محاكاة، أو تقليدًا لقصائد الشعراء السابقين، وإنما كان شعرًا صادرًا عن عواطف قائليه، تجلت في العواطف الصادقة للشعراء الذين عبروا عن وجدانهم ووجدان أمتهم، وكان شعراء فلسطين الألسنة الصادقة المعبرة عما يختلج في صدور أبنائها. أما في الربع الثاني من القرن العشرين فقد تطور الشعر الفلسطيني وارتقى في مدارج القوة والجودة، في الأغراض والأفكار والأساليب[1] وبرز رونقه وأسلوبه على يد مجموعة شعراء، مثل: إبراهيم طوقان، وعبد الكريم الكرمي، وخليل السكاكيني، ووديع البستاني، ومطلق عبد الخالق، وعبد الرحيم محمود. ومن الجدير بالذكر أن الشعر في تلك الحقبة من الزمن اتسم بالوطنية ارضًا وشعبًا وقضيةً.

يعتبر شعراء هذه المرحلة الروّاد في الشعر الفلسطيني المعاصر، حيث راحوا يوقظون الجماهير ويحذرونهم من المؤامرات البريطانية، ويرشدونهم إلى سبيل التحرير، وجمع نفر منهم بين سلاح الشعر وسلاح البندقية، فخاض المعارك وسقط شهيدًا، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء: مطلق عبد الخالق وعبد الرحيم محمود.

نهض الشاعر الشاب مطلق عبد الخالق متلهفًا متألمًا على هذا الوطن الذي اختلفت فيه الزعماء، وتناحرت فيه الأحزاب، فتفرقت الكلمة وكرّس الزعماء جهودهم لمصالحهم، ونزواتهم، وتركوا شعوبهم غارقة في الويلات والدماء، فقال شاعرنا في قصيدة له بعنوان "يوم الهوان"[2]:

لهفي على وطن تتنازع أهله ... عبث الرؤوس وضيعة الأذناب

الضغن والشحناء بعض خطوبه ... ومصارع الأخلاق والآداب

الشعب في دمه يخوض وخوضهم ... يا ويحهم في الشاي والأكواب

---

[1] كامل السوافيري، **الأدب العربي المعاصر في فلسطين**، ص 73.

[2] الرحيل، **يوم الهوان**، ص 50.

الفصل الأول: مطلق عبد الخالق، شخصيته وسيرته

1. مقدمة
2. اسمه، عائلته، مولده، ونشأته
3. دراسة
4. حياته العملية في حيفا
5. العلاقات الإجتماعية
6. شاعريته وشعره
7. رسالته الأدبية
8. ذكرى الخمسين
9. وفاته

مقدمة:

يتزامن صدور هذا الكتاب مع الذكرى المئوية لميلاد الشاعر مطلق عبد الخالق في سنة 1910. كان مطلق عبد الخالق شاعرًا وأديبًا، شابًا كثير الحماسة والتفكير، متجددًا في آرائه الفلسفية، وأشعاره الاجتماعية. كان شاعرًا كثيرًا ما يتحدث عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الأخيرة، وكان يتحدث باستمرار عن الدار الفانية. لقد تمنى دائمًا الموت، فنال بذلك بغيته وهو لا يزال في مقتبل العمر، كان يردد لأحد أصدقائه قائلاً: " لا تبكِ عليّ يا أخي ساعة أموت، ولا تجزع لأنني في دار البقاء، أولى بالحزن عليك مني، وأنت في دار الفناء بالبكاء عليّ".

كما كان متشائمًا يمقت الحياة ويعفها، حيث يقول:

وماذا تراها تكون الحياة	لا غـدو بها بائسًا منكـسر
بني الناس دنياكم جيفة	وليس على أرضكم ما يسر

إن شعره خلق لا ليكون كاملاً بديعًا موزونًا فحسب، بل لأنه يجعل الأرواح المسجونة في الأبدان طليقة حرة في العلا، تتذوق فيه وهي في سجن الدنيا لذة النعيم للدار الآخرة. قال عنه أستاذه قسطندي أفندي قنازع " إن شاعريته خلقت معه، وإنه كان شاعرًا قبل أن تعلم القريض"[2].

عاصر مطلق عبد الخالق ثورة الـ 36 ضد الاستعمار الإنجليزي، فعاش قسوتها، وشدة وطأتها على أبناء شعبه، فغنى لهم، وألهب مشاعرهم من خلال قصائده الوطنية العديدة.

اسمه، عائلته، مولده ونشأته

ولد مطلق محمد عبد الخالق في 9 تشرين الثاني عام 1910 في الحي الغربي أو (الميدان) في الناصرة، وفيها عاش طفولته وشبابه، وفيها تعلم، وفيها تبلورت شخصيته الوطنية مع أبناء جيله، والده كان مختارًا في الناصرة منذ عهد الحكم التركي، ورفض أن يتقاضى راتبه بدافع الشهامة والإباء. كما كانت والدته، سعاد عبد الغني، تعمل على صقل شخصيته الإجتماعية والإنسانية. كان والده ميسور الحال إذ كان يملك مساحات شاسعة من الأرض مسجلة على اسمه منذ العهد التركي، وكان من عائلة قديمة الجذور في مدينة الناصرة، كان شابًا متساميًا في حياته

الخاصة (جريدة "الدفاع") وحياته العامة. كان والداه يفخران به وبإنجازاته فأحبّاه وأحبهما حبًا شديدًا، ولكن حبه لأخيه صبحي كان أشد. كان مطلق يكنّ الاحترام لأخيه صبحي عبد الخالق الذي توفي في لبنان، الذي كان يحسن العزف على آلة الكمنجة.

توفي في مستشفى حمزة (رمبام)، ثم نقل جثمانه إلى الناصرة مسقط رأسه، حيث شهدت مدينة الناصرة في وداعه واحدًا من أكبر مواكب التشييع في تاريخها.

كما كان أيضا قائمًا على رئاسة تحرير مجلة "النفير" في حيفا[1].

دراستة

أنهى دراسته الابتدائية في مسقط رأسه، ثم التحق بروضة المعارف في القدس، ونال الشهادة الثانوية. ثم نزح إلى حيفا، فانكب على المطالعة وكان "دودة كتب"، ونبغ في الشعر وهو في السادسة عشرة، ثم عمل في الصحافة، وعمل موظفًا في البنك العربي بحيفا وعمل في مهنة التدريس، فكان مديرًا لإحدى المدارس الوطنية في حيفا

قُمنا بلقاءات ميدانية مع أقارب الشاعر[2] مطلق عبد الخالق، وتعرفنا عن كثب على مزيد من المعلومات عن حياته الخاصة والعامة، والعائلية والاجتماعية، بقدر ما يعيه هؤلاء الأقارب. وعلمنا أن الشاعر مطلق عبد الخالق كان في مرحلة متقدمة لإجراء خطوبة استعدادًا للزواج، إلا أنه توفي قبل أن يحقق ذلك.

حياته العملية في حيفا

وإذا كانت عائلة عبد الخالق في الناصرة قد أنجبته عام 1910، فإن مدينة حيفا كانت حبه الأثير. كان مطلق يسكن في بيت له في حيفا بالقرب من "كافيه يسرائيل" في المكان ذاته الذي

---

[1] ياغي، عبد الرحمن، حياة الأدب الفلسطيني الحديث من اول النهضة حتى النكبة، بيروت 1981، ص87.

2 نمر أسعد عبد الخالق يزبك، أحد أبناء عمومته والذي يهتم كثيرًا في جمع تراثه وتعريف الناس به.

غنت فيه كوكب الشرق أم كلثوم حينما قدمت إلى فلسطين أوائل الثلاثينات من القرن الماضي، وكان في نفس الحي يقع مصنع ألبان أخيه صبحي عبد الخالق.

كان أيضا عضوًا في "نادي الشباب العربي" في حيفا، الذي تأسس أواخر عام 1936 وأوائل عام 1937، كان مقر النادي في غرفة واسعة من أملاك عائلة "تنشنتي" قرب سينما "عين دور"، وتنشنتي هي عائلة إيطالية الأصل كانت قد تعربت، وكان من ضمن نشاطات هذا النادي عقد ندوات، واجتماعات ثقافية وسياسية، محاضرات شعرية وأدبية ووطنية، شارك مطلق عبد الخالق في جمعها.

بدأ مطلق عبد الخالق حياته العملية من سن العشرين بتأليف مجلة كشفية أسماها "كشافة الصحراء"، مع عاطف نور الله وهي مجلة كشفية أخلاقية مصورة، صدرت مرة واحده كل شهر في حيفا. وكانت افتتاحية عددها الأول في 6 تموز 1927. لقيت هذه المجلة رواجًا كبيرًا وإقبالاً لدعمها من قبل التجار الذين أثروها بمقالاتهم الأدبية ومنهم حمدي الحسيني، وعبد الله القلقيلي صاحب جريدة " الصراط المستقيم"، والدكتور معين الماضي، والدكتور رشدي التميمي، وأكرم الخالدي، ويونس شحادة صاحب "مرآة الشرق".

العلاقات الاجتماعية

كان معروفًا في الناصرة لدى جميع شرائح المجتمع، وكانت تربطه وشائج صداقة حميمة مع شخصيات اجتماعية وسياسية نصراوية. فقد وقف الى جانبهم وقت المحن، فأعانهم ودافع عن قضاياهم، لذلك كان لنبأ الحادث الذي أودى بحياته وقعه الشديد في الناصرة. شارك في جنازته وتأبينه كثير من الشخصيات المشهورة، منهم: الأستاذ نجيب نصار صاحب "الكرمل"، والمحامي الأستاذ وديع البستاني، وعبد الرحمن رشيد الحاج إبراهيم مدير البنك العربي بحيفا، ووفد من طبريا على رأسه الأستاذ صدقي الطبري، ومن القدس الأستاذ شكري قطينة، من يافا الأستاذان شوكت حماد وعبد الهادي عرفان عن أسرة "الدفاع"، السيد يوسف سلوم عن الصحافه، الأستاذ نديم بطحيش وعبد الرحمن الفاهوم من الناصرة عن أصدقاء الفقيد، الدكتور يوسف هيكل رئيس

بلدية يافا، وتليت كلمات تأبينية أشهرها كلمة قنصل العراق في فلسطين الأستاذ كاظم الدجيلي، كلمة المحامي حنا نقارة عن رابطة الشبيبة العربية بحيفا، كلمة الأستاذ أسعد الشقيري، كلمة الشاعر إبراهيم طوقان.

شاعريته وشعره

إن تلج عالم مطلق عبد الخالق الشعري والشخصي، أمر ليس سهلاً، لأنك تصاب بالذهول والحيرة والارتباك، وذلك لأنه عالم غني واسع ومتنوع، فالإحاطة بالمعلومات حول شخصيته وشاعريته أمر يقتضي محاولة للوقوف على أبعاد وفلسفة هذه الشخصية وولوج فنيّة شعره ومعانيه، فشعره شعر ثوري يصف حركة مقاومة الشعب الفلسطيني ويثريها، فقد كانت مهمته تفجير الواقع السياسي والوطني والاقتصادي والعمل على تغييره.

أدخل مطلق تغييرات طفيفة على شكل القصيدة ومضمونها ويعتبر مع حسن البحيري، وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى، مؤسسين للتغيير في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، فهم بشكل أو بآخر امتداد لسابقيهم من أمثال يوسف النبهاني، وأبي إقبال اليعقوبي إضافة إلى محمود الحوت، ومحمد العدناني وبرهان الدين العبوشي.

من مميزات شعر عبد الخالق: التشاؤم، ومخاطبة الليل والنجوم، والهموم واليأس من الحياة مع هذا الواقع المرير، ورؤية المستقبل المظلم فقد كان مطلق عبد الخالق متشائمًا.

لمع نجمه في الشعر خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، وتبوأ مكانة رفيعة بين مجايليه، شعره مجموعة من الخواطر والتأملات الصوفية والإنسانية، تشوبها سحنة من التشاؤم، إلى جانب الوطنيات المتأججة، والقصائد الاجتماعية والسياسية. وهو رومانسي النزعة يميل إلى الإبداع الذاتي، وينساب على أجنحة الخيال، وتاريخ الوجدان، ولهيب العواطف، وفيه تجديد في وحدة الموضوع وتنويع الأوزان والقوافي والموسيقى الموحية، وموضوعاته في الأغراض الوطنية والسياسية والاجتماعية، وفي الغزل، والرثاء، والوصف[1].

[1] راضي، صدوق، شعراء فلسطين في القرن العشرين، ص2000.

رسالته الأدبية

ينبع شعره من أعماقه، وكان يقول " إن الشعر هو قطعة من وحيي وهجسة من خاطري[1]. إن الشعر لديه لا ينفصل عن تاريخ شعبه وقضيته، بل هو جزء لا يتجزأ منها، وهو يؤمن أن الأدب في أي أمة حيّة لا ينفصل عن تاريخها، وعلى الأديب أن يخوض معترك الحياة مع أبناء شعبه، قلمه ينطق بلسانهم، وأسطره تعبر عما يختلج في نفوسهم، يصور آلامهم ويتغنى بآمالهم، وقد تجلى ذلك في معظم قصائده.

في ذكرى الخمسين

ينبغي التنويه هنا إلى أن الحزب الشيوعي الإسرائيلي أقام له حفلاً تأبينيًا بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته وذلك مساء الأربعاء 1987/9/2 في المركز الثقافي البلدي في الناصرة[2]، بمبادرة من الشاعر توفيق زيّاد الذي قال إن مطلق مثل إبراهيم طوقان وأبي سلمى وعبد الرحيم محمود إنحاز للشعب، للطبقات الشعبية بوصفهم أصلب وأصدق المكافحين للقضية الوطنية وللخلاص الوطني. وتحدث المربي الشاعر شكيب جهشان حول الجانب الرومانسي من إبداع مطلق عبد الخالق وبشكل خاص الغزل ووصف الطبيعة والوجدانيات الذاتية والموقف من مسألة الموت والحياة.

لم يعبأ كثيرون بإنتاج الشاعر مطلق عبد الخالق الأدبي، ولم يظفر أدبه بدراسات وأبحاث جادة حول شعره ونثره، بل بالعكس، ضُرب عليه تعتيم شبه كامل، وتجاهله حتى أقاربه الذين لم ينزحوا إلى الأردن عكس ما جرى لشعراء آخرين عاصروا مطلقًا أمثال إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود.

---

1 مصطفى، خالد علي، الشعر الفلسطيني الحديث، دار الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978، ص 40.

[2] جبران، سالم، مطلق عبد الخالق الشاعر الفلسطيني الذي اعطى عمره القصير كله للقضية الوطنية، الجديد، العدد التاسع، أيلول 1987، المجلد 36، ص7.

وفاته:

عُثر بين أوراق المرحوم الأستاذ مطلق عبد الخالق، التي وجدت في جيبه بعد حادث مصرعه، على ورقة صغيرة مقتطعة من دفتر صغير مكتوب عليها بخط يده ما يلي بالحرف الواحد: "مساء الخميس 1937–9–23، أنا الآن في غرفة، والساعة الخامسة والدقيقة 15، أفكر في مبهمات الحياة، وأقايس بين ما غبر وبين ما أنا عليه في ساعتي هذه، وبين ما سيأتي، أيها القدر القاسي، تُرى ما تُخبئ لي في القريب بين طياتك؟

وقد غطت الصحف العربية خبر وفاته على هذا النحو:

حيفا في 9 تشرين الثاني سنة 1937، حوالي الساعة الثانية والدقيقة 45 من بعد ظهر اليوم، كان الأستاذ مطلق عبد الخالق الشاعر المعروف، متوجهًا إلى منزل الأستاذ وديع البستاني، للاطلاع على مساعيه بشأن المعتقلين في مخيم المزرعة. وكان يركب سيارة تكسي يقودها السائق يوسف بيدس، وعند وصول السيارة باتجاه الخضر، حاولت تخطي خط سكة الحديد، للدخول إلى منزل الأستاذ البستاني، وكان قطار يافا متجهًا في منعطف هناك، فداهم السيارة وحطمها، وأصيب الأستاذ المرحوم مطلق بعدة إصابات لا سيما في رأسه، إذ انطبقت السيارة على بعضها وتكسرت أضلاع المرحوم، وأصيب السائق بجروح مختلفة في رأسه، وفي الحال توقف القطار، ونزل الموظف محمد حامد، فحمل الجريحين إلى المستشفى بأول سيارة وجدها، وهناك فارق الأستاذ مطلق الحياة رحمه الله. وقد هرع الجيران إلى المصاب، وإذ بهم يجدون أوراقه المبعثرة تحمل اسمه فعرفوه في الحال، وعاد السيد محمد حامد موظف القطار يعرف اسمي المصابين، فلما علم بالحقيقة، أخذ بالبكاء لأنه ابن عمه. وفي المستشفى أبدى الدكتور حمزة عطفًا كبيرًا في إنهاء المعاملة بالتصريح بنقل الفقيد إلى مثواه الأخير وأسفاه! وقد تم دفنه بالناصرة في مسقط رأسه في 10 تشرين الثاني 1937 الساعة الثانية بعد الظهر.

الفصل الثاني: رحلة في الديوان – المضمون

المضمون

1– البعد الوطني

2– الأغراض الشعرية

3– الأجواء النفسية

4– بيئة الشاعر الاجتماعية

البعد الوطني

الخلفية السياسية

اجتاحت فلسطين حالات من عدم الاستقرار السياسي، وعصفت بها رياح المقاومة والاضطرابات التي كانت مقدمة للثورة الفلسطينية الكبرى التي أعلنت فيما بعد بسبب استمرار الانتداب البريطاني، وسيطرته على مقدرات الشعب الفلسطيني، وحرمانه من أي نوع من أنواع الحكم الذاتي. بينما كان الخلاف بين زعماء الأحزاب السياسية لم يزل قائمًا حول اختيار أعضاء الوفد الرسمي المدعو إلى لندن للتباحث في موضوع المجلس التشريعي، توالت الاشتباكات المسلحة بين الفريقين العربي والإنجليزي بسرعة فائقة مما أدى إلى إعلان الإضراب العام الشامل في البلاد عام 1936.

وأدرك العرب أن العصابات التي تقف وراء المحرضين للقيام بالمظاهرات والاحتجاجات إنما تجلب الويلات للفلسطينيين أنفسهم وأنهم غير راضين عن مثل هذه العصابات، وأضرارها تلحق بجميع سكان فلسطين على السواء.

اجتمعت القوى الوطنية للتباحث في الأوضاع المتدهورة، وفي نهاية الاجتماع اتخذت قرارات بإعلان الإضراب العام في المدن الفلسطسنية الكبرى فورًا، وكذلك دعوة تلك المدن إلى تأليف لجان قومية تتولى إدارة الحركة الوطنية في منطقتها[1].

استمر الإضراب في تصاعد مستمر، حتى شمل النقابات والشركات والقطاعات المهنية المتعددة، كما شارك الطلبة والطالبات وخاصة في مجال الإسعاف والفرق الكشفية.

انضمت إلى الإضراب البلديات في فلسطين، وعقد رؤساؤها مؤتمرًا في رام الله لإعلان ذلك الإضراب، كما شمل دوائر المجلس الإسلامي الأعلى، والصحافة التي أضربت لمدة ثلاثة أيام فقط، لان الحالة السياسية كانت تقضي باستمرار وجودها.

[1] ن.م، اكرم زعيتر، ص12.

كان موقف الفلاح في هذا الإضراب موقفًا ساميًا، على الرغم من فقره المدقع وسوء حالته، فقد أبى قطف ثمار خضاره مشاركة منه للأمة.

ولبى النداء لمساعدة مجاهدي فلسطين بعض المناضلين من الدول العربية، وانضم إليهم معظم القرويين وكثير من أهالي المدن وحملوا السلاح وأخذوا يقاومون القوة بالقوة، وكان القتال في كل مكان، في الليل والنهار. من الجدير بالذكر أنه اشترك في الثورة ما يقارب أربعة عشر ألفا من الرجال بين ثائر ومتطوع ومساعد لوجستي[1].

مع إعلان قيام ثورة فلسطين الكبرى تم تشكيل مجلس القيادة العليا، وتم تقسيم فلسطين إلى مناطق عسكرية يقف على رأس كل منطقة قائد عسكري، من أهل المنطقة نفسها.

كما تألفت " اللجنة العربية العليا" من رؤساء الأحزاب الخمسة، وخمسة آخرين من رجالات البلاد، وكان أعضاؤها السادة: الحاج أمين الحسيني، راغب النشاشيبي، أحمد حلمي عبد الباقي، الدكتور حسن الخالدي، يعقوب فراج، عوني عبد الهادي، عبد اللطيف صلاح، ألفرد روك، جمال الحسيني ويعقوب الغصين.

وانتخب السيد أمين الحسيني رئيسًا. وطالبت هذه اللجنة بمواصلة النضال السلمي والاستمرار في الإضراب العام، حتى تغير الحكومة سياستها المتبعة في فلسطين، حرصًا من اللجنة على تحقيق غايات البلاد بالطرق الدبلوماسية، رفعت إلى المندوب السامي مذكرة انتقدت فيها سياسة الحكومة وعرضت فيها مطالب الأمة.

وقامت السيدات في المدن بالمظاهرات، وإرسال الاحتجاجات والبرقيات إلى الوزارة البريطانية وبرلمانها، وملكها، وإلى ملوك العرب وأمرائهم، وقمن بجمع الإعانات من نقود وثياب وتوزيعها على المعوزين من الشعب، وكثيرات من السيدات تطوعن بحليهن وحملن السلاح وقدمن الدعم اللوجستي للثوار. فالثورة الفلسطينية كانت ثورة شعب برمته، متوحد الصفوف، يرمي إلى غاية واحدة: المحافظة على فلسطين عربية.

---

[1] كبها، مصطفى. **سجل القادة والثوار المتطوعين لثورة 36–39**، 2009

رزحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني منذ 1918، وبقيت تعاني الكثير من الويلات كالمعاملة السيئة والمهينة التي لاقاها أبناؤها، مما اضطرهم إلى القيام بعمليات احتجاجية ابتداءً من 1919، حيث تطورت فيما بعد إلى صدامات ومواجهات مسلحة دموية بلغت أوجها في نيسان 1936 واستمرت حتى 1939. في ظل هذه الظروف القاسية نشأ الشاعر مطلق عبد الخالق وترعرع، وذاق مرارة وقسوة المعاملة، فأخذ يناضل ويقاوم المستعمر الإنجليزي بقلمه ونفسه وشعره، ويحث الناس على التصدي للمستعمر ومقاومته بكل ما أوتوا من سلاح وقوة. في قصائده المختلفة ينقل مطلق عبد الخالق وجع الفلسطيني، وقهره، ومحاولة تمسكه بأرضه والدفاع عنها.

الوطن والوطنية

ساد المرحلة النضالية جو من الانقسام والبغضاء بين أبناء الوطن، فكانت الأحزاب يتجاذبها التناحر والتشرذم، فحينًا كانت تميل إلى المهادنة وأنصاف الحلول، وحينًا آخر كانت تجاري وتجامل الانتداب البريطاني. وعندما كانت تشتد حدة المقاومة الشعبية، ويتعاظم مدّها النضالي، كانت الأحزاب تخرج للمشاركة من قبيل الرياء والخداع، حتى تظل ممسكة بزمام الأمور، وتعمل على تهدئة الأوضاع لتحظى بمكانة مقبولة للمحافظة على وظائفها ومراكزها لدى البريطاني. من جهتهم، حمل الشعراء بشدة على مواقف تلك الأحزاب المتهاونة، والتي تجلب الضرر لأبناء الشعب، فهذا مطلق عبد الخالق يحمل على تناحر وتشاحن الأحزاب بهدف الوصول إلى السلطة، ويحمّلها المسؤولية. فقد تهافت زعماؤهم على الذل والمهانة حتى تبلدت حواسهم، ووهنت قوتهم، وضعفت عزيمتهم، فنسوا الوطن والوطنية، يقول في قصيدة "يوم الهوان"[1]:

لهفي على وطن تنازع أهله ... عبث الرؤوس وضيعة الأذناب
الضغن والشحناء بعض خطوبه ... ومصارع الأخلاق والآداب
وتبلبل الرأي الشتيت وعزة ... موؤودة وتناحر الأحزاب
وتواكل في الحادثات وذلة ... وفتور أشياخ ونوم شباب
وتزلف أو ما رأيت شراتنا ... هاماتهم تمشي على الأعتاب

الشعب في دمه يخوض وخوضهم يا ويحهم– في الشاي والأكواب
وعـــزائـــم مغلـولـــة، ومشـاكل تغـنـي شـواهـدها عن الإسـهاب

هاجم مطلق عبد الخالق الهجرة اليهودية والانتداب البريطاني، وأفرد لهما قصائد عدة عبّر فيها عن رفضه لفكرة هجرة اليهود إلى فلسطين، وحذر الشعب الفلسطيني من مغبتها، وقد بيّن ذلك في أكثر من قصيدة، وآمن أن القوة هي الطريق إلى حل القضية الوطنية، يقول:

أضـــرم النـــار مـــا دام الحديـــد حاميًا.. واحزمه من غـير مـلال
تحي حرًا مطلق الروح سعيدًا وتزيل الـنير عـن ظهـر الرجـال
فـــإذا مـــا لعلعـــت.. الـــدمار فـوق هامـات العـداة الفـاتحين
واكتسـت هـذه الربـى بـالاحمرار تشـرق الشـمس علينـا أجمعـين

لقد هاجم الزعامة العربية وانتقدها وندد بالفساد، والتناحر الذي ساد الساحة العربية في العشرينات والثلاثينات، مما ساهم في تيسير الهجرة اليهودية، وتسهيل استيعاب اليهود، يقول[1]:

قـــدمتم قبـــل أيـــام مـــذكرة إلى الحكومة، يـا قـوم "الزعامـات"
يا ليت أنّا عرفنا ما يطرزها من المعاني، ومـن سـامي العبـارات

ثم يتحسر على وطنه وشعبه من شيوع الفتنة والخلافات، ففي قصيدة "دمعة على الوطن" يقول[2]:

كـل مـا في وطـني فـتن هـــو حقًـــا فتنـــة الفـــتن
وشخوص الحي جامدة في ظـــلام الليـــل كـــالوثن
خرســـت.. لا صـــوت غير صوت القيـد والرسـن!

[1] الرحيل، مذكرة، ص60.

[2] الرحيل، دمعة على الوطن، ص23.

ويتابع هجومه على المنحرفين من أبناء شعبه، فيقول في قصيدة "خواطر في مرقص"[1]

حسبكم، قوم، نشوة وهياما غاب بدر الدجى ولاح الصباح
طالما أنتم أساري هواكم ليس يرجى لذي البلاد نجاح

أبدى مطلق عبد الخالق امتعاضه من الخلاف القائم بين الأحزاب والزعامات، وما آلت إليه الأوضاع التي أدت بالشعب الفلسطيني إلى بيع الأراضي، ولكنه يعد بالكفاح، يقول[2]:

لا تشتموا يا هؤلاء، فإننا قوم على رغم الزمان كرام
خلوا البلاد لنا وإلا بينكم يا عابثين وبيننا الأيام

ويتابع قوله في قصيدة أخرى حول نفس الموضوع[3]:

فداك الروح يا وطني المفدى ونحن فداك يا وطني جميعا
يدافع عنك ثوار كرام وشعب دأبه ألا يطيعا
مشى في حلبة الأقدام شوطا بعيدا، يدفع الخطر الذريعا
ولم يعرِ الزعامة.. أي هم ولم يحفل أصولا.. أو فروعا
فلسطين الشهيدة لا تراعي ولا تأسي ولا تذري الدموعا
فنحن وهم سنبقى في صراع إلى أن ننقذ الحق الصريعا
ونعقد فوق هامك تاج غار ونسكنك الحنايا والضلوعا

يصور مطلق عبد الخالق حال الشعب الفلسطيني والأمة العربية بصورة قاتمة، فقد فَقَد هذا الشعب خيرة الرجال في معارك الشرف ضد المعتدى، يقول[4]:

---

[1] الرحيل، خواطر في مرقص، ص143.

[2] الرحيل، عمر العظيم، ص108.

[3] الرحيل، فلسطين الشهيدة، ص14.

[4] الرحيل، الى روح جلالة الملك علي"، ص139.

الرزايـا في بـني العـرب كـثير من رزايا العرب فتـدان الرجـال
كم رزئنا– لهف نفسي– بعزيز وشـــرقنا برزايانـــا الثقـــال
وعـــدونا لا نحـــس بالرزايـــا إذ فقدنا الحس من وقع النصـال

يتألم الشاعر لبعده عن أرض الوطن المحرر وعن الشعب الطليق، ويشعر بالغربة وهو في وطنه، يقول[1]:

ومتـــى ألقـــاك يـــا وطـــني؟ وهـــلا ينتهـــي عمـــري؟
متى؟ قد طال منتظري متـى؟ قـد عيـل مصـطبري
أنـــا في هـــذه الـــدنيا... غريـــب الـــدار.. والـــوطر!

سقط في عرب طبعون أول شهيد اسمه محمد، وشهد الشاعر حالة العرب بعد وفاة شهيدهم، فاستصرخهم، وحثّهم على الجهاد وعدم التكاسل في تلبية الواجب من أجل الوطن حتى لا يضيع دم الشهداء، فيقول[2]:

عـــرب طبعـــون لا تنســـوا أنـــــتم في الودائـــــع
قد صبرتم وصبركم لكـــم خـــير شـــافع
فانبـــذوا لـــذة الـــدنى للنفـــوس الطوامـــع
ودعـــوا راحـــة الكـــرى للعيـــون الهواجـــع
وأطلقوهـــــا دويـــــة صـــرخة في المجـــامع
نحـــن قـــوم نفوســـنا كالســـيوف اللوامـــع
لم يفلـــــها الصـــــدا بـــل قـــراع القـــوارع
واصـــرخوا يـــا شـــهيدنا أنـــت خـــير الطلائـــع
واهتفـــوا يـــا إلهنـــا مـــا شـــهيد بضـــائع

[1] الرحيل، اليك يا وطتي، ص158.

[2] الرحيل، عرب طبعون، ص 163.

فلسطين الوطن

وكما كان الشعر الجاهلي ديوان العرب في عصرهم وسجل أيامهم، فإن الشعر الفلسطيني كان في معظمه سجلاً للمعاناة التي عاناها الشعب الفلسطيني إبان الحكم البريطاني. وفي هذا الشعر تاريخ وتوثيق لهموم هذا الشعب الذي ظل يذود عن وجوده وأرضه وتراثه، فقد كان لكل حدث أصداء في الشعر، واعتاد الشعراء أن يذكروا تفاصيل الحدث، من تصوير المأساة والإحباط.بسبب الإحساس العارم بالفاجعة وما خلفته من ندوب عميقة في الوجدان الجماعي كان على الشاعر ألا يكتفي بالوصف المجرد أو أن يعتمد على الصور الشعرية فقط، إنما عليه أن يعبر عن موقف ويتمثل ذلك في مقاومته للاستعمار بصورة صريحة وحادة. وعليه فقد نظم الشعراء الفلسطينيون وغيرهم قصائد كثيرة في تمجيد فلسطين الوطن، والتاريخ والمعالم، ونضال فلسطين ومقاومة شعبها للمحتل الاستعماري الإنجليزي.

كان مطلق عبد الخالق واحدًا من الشعراء الوطنيين الذين دافعوا عن وطنهم بشعره الحماسي المؤجج للعواطف، والمثير والمستنهض لهمم الشباب ليثوروا على الغاصب المعتدي، فرثى المناضلين الشهداء الذين ضحوا بحياتهم من أجل فلسطين ومن بين هذه القصائد "الضحايا" ص47، "ضحايانا" ص54، "تحية الشهداء" ص11، "فلسطين الشهيدة" ص14.

كما هاجم مطلق عبد الخالق الصهيونية والزعامة العربية المتعاونة مع الاستعمار، وأفرد قصيدة خاصة لفلسطين، عبّر فيها عن جرحها الدامي، ترفض بكل إباء وشمم الاستسلام والذل والمهانة، وترفض بعناد بيع الأرض لليهود، ويقول[1]:

"فلسطين الشهيدة، ما عراها؟ ولِمَ تخطو إلى الجلى سريعا؟
وتضرب غير عابثة، شهورا وليس تود تشري أو تبيعا؟
وتأبى في نعيم الذل شبعا وترضى في جحيم العز جوعا"

[1] الرحيل، فلسطين الشهيدة، ص14.

يلامس البيت الثالث في مفهومه ومضمونه المعنى الذي يرمي إليه عنترة بن شداد في بيته:

وعيشة في الذل لا نرضى بها وجهنم بالعز أفخر منزل

فلسطين بأبنائها الشرفاء المناضلين المجاهدين لا يأبهون بقوة العدو المسلحة، ولا يقيمون لطائراتهم المدمرة، ومدافعهم وزنًا، بل يسخرون منها، وبذلك يثور الشاعر ضدهم، ويغرس في نفوس أهل فلسطين العزة والكرامة والفخر والقدرة على مقارعة الأعداء، يقول[1]:

ترى في الطائرات ذباب خصم يطن...وفي مدافعه شموعا
ولم تحفل مئات من ضحايا بل اتخذت ضحاياها دروعا
هي الحرية الحمراء تسقى فتنبت بالدم الشرف الرفيعا
وتورق في ظلال الموت مجدا أثيلا باذخا حيا منيفا

فهذه الصور الشعرية المفعمة بالحماسة والثورية تلهب مشاعر أبناء فلسطين، وتحثهم على النضال والمقاومة وكثيرًا ما اعتاد الشاعر مطلق عبد الخالق على إلقاء قصائده الوطنية والسياسية في حيفا والناصرة ويافا والقدس، وكان يحظى بالهتاف والتصفيق من الجمهور فيشحنهم بالطاقة الثورية والقوة النضالية. فيقول مخاطبًا فلسطين[2]:

فداك الروح يا وطني المفدى ونحن فداك يا وطني جميعا
وكيف تضيع يا وطنا عشقنا ونحن بنيك نأبى أن تضيعا
يدافع عنك ثوار كرام وشعب دأبه ألا يطيعا

[1] الرحيل، فلسطين الشهيدة، ص14.

[2] ن.م، ص 15.

شعب فلسطين لا يضن بدمه وروحه في سبيل الوطن ولم يتخاذل أو يتوانَ في أداء الواجب نحو وطنه، فيمضي بالدفاع عنه غير عابئ بمواقف الزعامات المتخاذلة التي تساوم على حساب الوطن فيقول[1]:

ولم يعـــر الزعامـــة..أي هـــم ولم يحفـــل أصـــولا..أو فروعـــا
فإن لم يستطع دفعا لأمر فأَقصـــى همـــه أن يســـتطيعا
لقـد أقـدمت يـا شـعب المعـالي ولم تحجـم فأحسـنت الصـنيعا

فهذا عهد قطعه الشاعر على نفسه باسم فلسطين الجريحة والأسيرة، وهو مواصلة المقاومة والنضال حتى إحراز النصر. وهذا الوضع المأساوي الذي ساد في تلك الحقبة من الزمن نراه الآن على أرض فلسطين، فصوت الشاعر يظل مجلجلاً ينادي ويدفع الشعب إلى الاحتجاج ضد الفساد ضد الانجليز وضد الزعماء العرب الذين باعوا القضية بأبخس ثمن. إن نزعته الدينية وقربه من الله واعتماده عليه في جميع القضايا المتعلقة بشخصه وأمته تبدو واضحة في كثير من القصائد، فهو يتوكل على الله دائمًا ويرفض التواكل، ويرفع صوته ذا النبرة القوية واعدًا فلسطين بالاّ تترك فريسة للذئاب فيقول[2]:

ونعقـــد فـــوق هامـــك تـــاج غـــار ونســـكنك الحنايـــا والضـــلوعا
ونسخر من عدو مستبد وعـــين الله ترقبنـــا جميعـــا
عـــدوك إن أضـــعت لديـــه حقـــا فعنـــد الله حقـــك لـــن يضـــيعا

ويضيف مقسمًا أن فلسطين ستبقى خالدة ولن تضيع أبدًا حتى لو اصطبغت أرضها بدماء الشهداء الذين يسقطون كل يوم ويفخر الشعب بهم، لأنه ليس لهم مثيل في الدنيا قاطبة، فحتى الصخرة المشرفة ومهد عيسى خرّا سجدًا احترامًا لفلسطين ووفاء لدماء شعبها المناضل، فهذه الصور

[1] ن.م، ص15.
[2] ن.م، ص 14.

الشعرية ذات الدلالات الدينية يوظفها الشاعر من أجل تحفيز وحث الشعب للخروج إلى النضال والقتال والاستشهاد في سبيل الوطن، لأن الشعب بشقيه المسلم والمسيحي متضامن مع فلسطين، والطابع الديني مسيطر إلى حد ما على حياة الشعب الفلسطيني، فنرى علماء الدين من الطرفين يدافعون بأنفسهم عن ثرى فلسطين الطاهرة فيقول[1]:

وأضـــحت كيفمـــا قلبـــت طرفـــا تـــرى في كـــل ناحيـــة صـــريعا
وخرت صخرة الأقصى خشوعا ومهـــد يســـوع ممـــا شـــام ريعـــا
مـــآسٍ مـــا رأى الـــدهر شـــبيها لهـــا، ممـــا عرفنـــا قريعـــا

ونرى أن الشاعر عبد المطلق يقف موقفًا مشرفًا من القضية الفلسطينية، فقد قاوم بنفسه وحث على المقاومة والجهاد فهو بحق، حسب رأيي، يعتبر من رواد المقاومة ومن أوائل من آمن ونادى بحتمية الجهاد والاحتجاج على السياسات المنحازة والمعاملات المهينة للشعب.

فشعره ينبض بالحيوية الجهادية ويفيض بروح قتالية ويقطر لظى دموية، وهو مع زملائه عبد الرحيم محمود وأبو سلمى وإبراهيم طوقان وضعوا اللبنات الأولى لشعر المقاومة ونطقوا بالكلمة المعبرة والمثيرة التي تهز كيان المستعمر والغاصب والمتخاذل والمتآمر على الشعب.

يستخدم الشاعر صورا شعرية خلابة مأخوذة من واقع الحياة اليومية في فلسطين، حيث الماء العذب، والنسيم العليل والهواء الطلق والربى الأخاذة والمواشي في مرابعها، والطير السامر في شدوه، وشعاع الصبح، كل هذه جميعاً تمثل الجو الفلسطيني العام والبيئة القروية الفلسطينية بكل ما فيها من أصالة وشفافية. فهذه الحياة بكل صورها وجوانبها تستحق من الشعب الفلسطيني أن يثور من أجلها، ويحافظ عليها وعلى تراثها إلى درجة العبادة والتقديس. فلسطين وطن غالٍ، فيه من الخيرات والنعم ما يدفع أهلها إلى الدفاع عنها والذود عن حياضها، ومن أجل هذا الوطن ينبغي على أصحابه أن يفدوه بأرواحهم وأنفسهم[2]:

---

[1] الرحيل، فلسطين الشهيدة، ص 14.

[2] الرحيل، دمعة على الوطن، ص23.

وطـــــــني والله أعبـــــــده وأفديـــــه مـــــدى الـــــزمن
مـــــاؤه عـــــذب، وأربعـــــه غضـــــة بـــــالمنظر الحســـــن
والنســـــيم الطلـــــق منتشـــــيا بـــــأريج الزهـــــر، ينعشـــــني
وربـــــــــاه في مرابعهـــــــــا حلـــــوة في العـــــين والأذن
والمواشـــــــي في مراتعهـــــــا ثـــــرة بالصـــــوف واللـــــبن
يطيـــــبني همـــــس طـــــائره ســـحرا، يشـــدو علـــى فـــنن
وشـــــعاع الصـــــبح يطـــــربني وظـــــلام الليـــــل يؤنســـــني
كـــــل مـــــا في مـــــوطني فـــــتن هـــــو حقـــــا فتنـــــة الفـــــتن
أنـــــا فيـــــه هـــــائم دنـــــف دنفـــــي بـــــالفرض والســـــنن

جميع هذه الصور مستقاة من حياة الفلسطيني القروية التي اتسمت بالفلاحة والزراعة، وتربية المواشي، فالأرض عزيزة على أصحابها تستحق أن يدافعوا عنها، وأن يضحوا بأرواحهم في سبيلها فالدفاع عن الأرض فرض عين يمليه الدين والضمير، لأنهم لا يملكون أرضًا سواها، كان الشاعر يرى أن من واجبه أن يكون مخلصًا لوطنه، وأن يدافع عنه بكل قواه، فإنما الخلق العالي الذي تمتع به مطلق عبد الخالق يدفعه لأن يكون مخلصًا لوطنه، فالإخلاص نحو الوطن الذي أظله وترعرع تحت ظل سمائه، وتنسم عبيره، وأطعمه من خيراته. فمن الخيانة ونكران الجميل أن لا تكون صادق الود نحوه، وها هو الإخلاص الأكيد، لا الزخارف المادية الباليه التي يتكالب عليها الناس، لذلك كانت تفيض نفس الشاعر حنانًا وإخلاصًا نحو هذا الوطن فيناجيه قائلا[1]:

دمعـــــة يـــــا عـــــين أذرفهـــــا شـــــجنا في الســـــر والعلـــــن
لا تضني وأرفقي بفتى بـــــالحمى المنكـــــوب مفـــــتتن
أرق...قـــــد حـــــار في وطـــــن ســـــاغب، حـــــران، ممـــــتهن
دمعـــــة بالـــــدم قـــــد مزجـــــت فاســـــتحالت عـــــبرة الـــــزمن

[1] ن.م، ص25.

دمعـــــة، الطهـــــر لحمتهـــــا وســـــداها الحـــــب والـــــوطن

إذا كان لكل شاعر قصيدة تنتسب إليه، وينسب إليها، هي من غير شك "فلسطين الشهيدة" ذات 29 بيتًا، والتي سرعان ما انتشرت في أرجاء الوطن، فكان فيها من هياج وتحريض، مع وتيرة الغضب المتصاعد، إثر ثورة 1936 العظيمة التي توجها الشعب العربي الفلسطيني بالإضراب التاريخي الطويل المشهور، وأنهاها الحكام العرب بدعوة الشعب إلى الهدوء والركون إلى ثقة الصديقة بريطانيا، فقضية فلسطين فجرت طاقة شعرية قوية تتناسب مع غضب الشعب.

إن الشعر شأن ذاتي، وفلسطين بالنسبة لمطلق عبد الخالق، هي الحبيبة وهي القضية، إنه ثائر وفلسطين حلم الثائرين، فتراثه إنجاز يضاف إلى الانجازات الشعرية في النصف الأول من القرن العشرين. إلا أن ما يستوقفنا عدا عن العلاقة العفوية بين الكلمات، عدم اهتمامة بما كان يسميه الأسلاف ببيت القصيد، بل كان مشغولاً بالقصيدة كلها، باعتبارها وحدة عضوية. إن شعر مطلق عبد الخالق الذي ينبض بقوة المعنى وجمال المبنى، يعدّ مشاركًا في المعركة إلى جانب البندقية، ومع هذا لم يهمل الجانب الفني وإن كان لم يعره اهتمامًا موازيًا لاهتمامه بالمضمون، وذلك بسبب الظروف التي عاشها هو وشعبه والتي اضطرته إلى تقديم المضمون على الشكل. إذ ليس من يكتب عن القتال والمقاتلين والثورة بصاحب شعر مقاتل، وإنما الشعر المقاتل يولد في خنادق النضال معمّدًا بالنار والخوف والاقتحام، لأنه يتحمل مسؤولية الدم ويشارك فيه بالوعي والبندقية[1].

ويعد الشعر الفلسطيني شعرًا وطنيًا وليس شعرًا مقاتلاً، إلا أن الشاعر مطلق عبد الخالق قاتل بالكلمة، وشارك في المعركة، ولذا يعد من شعراء المعركة، فقاتل هنا وهناك، واستشهد في سبيل وطنه، ويعتبر شعره خير دليل على أفضل نماذج للشعر المقاتل في العالم العربي.

[1] نزيه أبو نضال، الشعر الفلسطيني المقاتل، ص7–8.

الأغراض الشعرية

الرثـــــاء

يمر الإنسان بثلاث مراحل: مرحلة الحياة، مرحلة البرزخ، ومرحلة الحياة الآخرة. ومن البديهي أن الحياة الدنيا لكل إنسان تنتهي بالموت، وحينئذ يتأثر الأحياء بفقد الغريب أو الصديق أو المناضل أو العالم، ويرثونه بما تيسر لهم من شعر أو نثر.

قد شارك مطلق عبد الخالق في رثاء عدد من الزعماء، والصحابة، والمناضلين والأصدقاء. لم يفوّت مطلق عبد الخالق فرصة، سقط فيها شهيد، أو زعيم إلا وشارك فيها بنظم القصائد في رثائهم وإبراز مناقبهم، وإظهار مآثرهم، بغية تخليد ذكراهم ليكونوا قدوة لغيرهم.

رثا مطلق عبد الخالق البطل المعروف سعيد بك العاص الذي استشهد في فلسطين، كما رثا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثاني عمر بن الخطاب (عمر العظيم)، والملك فيصل (زفرة على فيصل)، ورثا جلالة الملك علي بقصيده "إلى روح جلالة الملك علي"، وأخيرا رثا الشيخ القسّام ببيتين من الشعر. يرثي مطلق لحال الوطن المنكوب، وحال الأمة التعيس، وكان هدفه الأول أن ينال هذا الشعب الاستقلال ويظفر في الحرية وينال الحقوق السياسية والاجتماعية، ففي قصيدة "على شهيد الخضر" (الرحيل، ص91) يرثي الشاعر مجاهدًا مناضلاً هو سعيد العاص[1] محاولاً تخفيف الألم الذي انتاب أصحابه ومعارفه. يخاطب الشاعر المتوفى، ويناشده بأن هذه سنة الله في خلقه، وهذه شؤون الحياة: ناضلت ضد الإنجليز المستعمر دون التبجح ببطولاتك والتحدث عنها أمام الشعب، فكنت الجندي المجهول الذي يعمل في الخفاء لأنك وضعت مصلحة الوطن في قمة أولوياتك، لذلك حزن عليك الجميع من أصدقاء ورفاق سلاح، نم قرير العين تحت الثرى

1 قائد من أبطال الثورة السورية، قدم إلى فلسطين ليحارب الانتداب الإنجليزي إلى جانب إخوانه الفلسطينيين، وقد تسلم قيادة منطقة الخليل–بيت لحم– والقدس، ،وعرف باسم "أبو سعاد".

لأنك ستبقى خالدا في ضمائر الناس. وقد نظم هذه القصيدة بحيث تتسع لبث لظى اللوعة والحرقة بفقد الشهيد والإشادة بميزاته، ولتأكيد رابطة الأخوة العربية والأهداف المشتركة، يقول[1]:

شـــهيد الـــبلاد ألا تســـمع ... وهـل غبـت عنـا ولا ترجـع!
عزيز علينا أخا المكرمات ... فراقـــك والنـــأي والمصـــرع
ســعيد تنــوح عليــك الســيوف ... وتــوحي إلى الــنفس مــا يفجــع
وتـــذكرك الصـــافنات الجيـــاد ... وينـــدبك القـــاع والبلقـــع
ســـعيد نناجيـــك في لهفـــة ... ونـدعو "سـعيد" فهـل تسـمع؟
أخـا العـرب هـذي شـؤون الحيـاة ... نـــروح ونغـــدو ولا نرجـــع
وإن هـــي إلا خفقـــة الســـراج ... ســـيلفظها ثـــم لا يســـطع
فعشـــت غريبًـــا تعـــد الليـــالي ... وترقـــب أمـــرًا بـــه تطلـــع
إلى أن دعاك نفير الجهاد ... فلبيـــت تســـعى ولا تجـــزع
ســـنذكر أعمالـــك الخالـــدات ... ونقفـــو خطـــاك ولا نفـــزع

كنت غريبًا في فلسطين، لم يعرفك الشعب الفلسطيني، وقلما شاهدوك أو تعرفوا عليك، فبقيت على هذه الحال حتى دعاك الواجب للقتال فلبيّت مطمئنًا[2]:

وقومـــك يـــا صـــاح لم يعرفـــو ... ك ولم ينظـــروك ولم يســـمعوا
فعشت غريبًا تعد الليالي ... وترقـــب أمـــرًا بـــهِ تطلـــع
ومـــت شـــهيدا تضـــم الســـيوف ... رفاتـــك والتنـــك والمـــدفع
وهـذي "سـعادك"[3] مـلء القلـوب ... تحـفّ بهـا العـين والمسـمع
وشـــيمة قومـــك نســـيان مـــن ... يعـــيش وذكـــر الـــذي يصـــرع

[1] الرحيل، على شهيد الخضر، ص 91.

[2] الرحيل، على شهيد الخضر، ص 62.

[3] ابنة البطل سعيد بيك العاص.

مات سعيد بك العاص شهيدًا، يذب عن حمى الوطن الفلسطيني، وفجُع به الجميع، خاصة لأنه غريب بعيد.

استخدم مطلق عبد الخالق بعض الصور الشعرية، وأجاد في إبرازها، لاشتمالها على معانٍ كثيرة في كلمات وأبيات واضحة، تمتاز بجزالة اللفظ وصدق العبارة وحسن الإيقاع، ليترك أثرًا بالغًا من حسرة الفراق على نفوس المتلقين، كما استخدم أيضًا صورًا متعددة تنبض بالمبالغة كقوله[1]:

سـعيد تنـوح عليـك السـيوف وتـوحي إلى الـنفس مـا يفجـع
وتذكرك الصافنات الجياد وينـــدبك القـــاع والبلقـــع
وتبكـي عليـك نجـوم السـماء وترنـــو إليـــك ولا تســـطع

فحتى السيوف، والخيول، والنجوم تشارك في الحزن عليك، وتتألم لفراقك، لأنك كنت بطلاً في ساحات الوغى لا يعرف الخوف إلى قلبك سبيلا.

يبكي الشاعر مطلق عبد الخالق شخصية عربية هاشمية فذة، كان لها أقوى الأثر على الشعب، لجبروته وأنفته، فيعزى آل الحسين بوفاة الملك فيصل[2].

ويفضل مطلق عبد الخالق في رثائه، أن يستخدم صيغة المبالغة ليعبر من خلالها عن مكانة المرثي في الأوساط الرسمية والشعبية، ويستعمل صورًا شعرية مستقاة من الطبيعة، تنبض بالحركة والحيوية، وهنا أيضًا يؤكد مطلق عبد الخالق أن حياة الإنسان قصيرة سرعان ما تتلاشى وتغيب عن الوجود، بهذا يحاول أن يخفف من وطأة الحزن على كل من عرفه وصادقه وعمل معه وتحت كنفه، ويقول[3]:

يـــا فيصـــل الأرواح زاهقـــة.. يـــا فيصـــل الأيـــام تحتضـــر

---

[1] الرحيل، على شهيد الخضر، ص 62.

[2] ملك سوريا والعراق توفي سنة 1933.

[3] الرحيل، زفرة على فيصل، ص 122.

يا فيصل، الأعمار هينة كالـــدهر، لا طـــول ولا قصـــر
الشـــمس في الأضـــواء... باهتـــة والـــنجم تلـــو الـــنجم.. والقمـــر
والطـــير محـــزون ومنتحـــب والزهـــر لا عـــود.. ولا ثمـــر
والبيـــــد مائـــــدة بأهلـــــها والجـــو فـــوق البيـــد معتكـــر
والحـــزن- يـــا أقـــدار منتشـــر والبشـــر- يـــا أقـــدار منتحـــر
يـــا فيصـــل الجبـــار معـــذرة إنّـــا- ورب البيـــت نعتـــذر
لـــو كنـــت تفـــدي يـــا "محجتنـــا" يفـــديك فينـــا الســـمع والبصـــر
نفـــديك بـــالأرواح لا كـــذب في القـــــول- لا والله! أو زور
مـــولاك- يـــا مـــولاي يندبـــه البـــدر في البيـــداء والحضـــر
آل الحســـــين! الله يكلـــــؤكم أضـــنتكم الأحـــداث والغـــير

يتوجه الشاعر إلى فيصل بروح مؤمنة، ونفس مطمئنة، يعتمد على الله القادر على رحمته، ذاكرًا اسم الجلالة "الله" ست مرات. رثاء الشاعر هنا يتسم بالفاجعة والمصيبة وشدة الأحزان على فراق الملك فيصل، لدرجة أنه يصور الكون تصويرًا دقيقًا مفعمًا بالسوداوية والكآبة التي عانى منها الشاعر نفسه.

ويرثي الشاعر شخصية دينية سياسية، تاريخية، اجتماعية، هي شخصية خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، معددًا خصاله الحميدة، وصفاته الحسنة، وسيرته العطرة. ويتطرق إلى قيم إنسانية طبقها عمر على نفسه وعلى أمته كالعدالة بين الناس، والمساواة بين أبناء الشعب كافة، ونحن أحوج ما يكون إلى جميع هذه القيم الإنسانية والاجتماعية. يتألم الشاعر مطلق عبد الخالق لفقدان تلك القيم النبيلة بين أبناء وطنه، ويتساءل لماذا نَعَمْ أيام عمر وكلا في أيامنا. فمن خلال الرثاء يوجه الشاعر نداء إلى أبناء وطنه أن يتحدوا ويتساندوا لأنهم أمام غازٍ جبار ومستعر لا يعرف الرحمة، فيقول[1]:

[1] الرحيل، عمر العظيم، ص 107.

صـــنو الرســـول، تحيـــة وســـلام عـــزّت بـــك الأعـــراب والإســـلام
فاروق، يا رمز العدالة والنهى لـــك في القلـــوب محبـــة وغـــرام
واذكرياتـــــك إذ تعـــــود بنـــــا إلى أيـــام كنـــت، ويـــا لهـــا مـــن أيـــام
مـــا أعـــدل الفـــاروق يمشـــي خاشـــعًا والرمل، لا ظهـــر الـــبعير– ســـنام
طوبـــاك إذ قـــدت الـــبعير لخـــادم فتعـــــادل الأســـــياد والخـــــدام

فيتمنى الشاعر أن تعود أمته إلى سابق مجدها، تنشد العزة والكرامة، وليس الخنوع والخضوع، يقول[1]:

أيـــــام كنـــــا أمـــــة عربيـــــة تســـعى إلى العليـــاء، لـــيس تنـــام
أيام كان الحق أوفر قوة وتعـــانق الصمصـــام والأقـــلام

المستعمرون والغزاة الذين يحتلون وطننا، جاروا على الشعب، وأذلوه على عكس معاملة عمر مع النصارى حينما فتحت القدس، فنالوا الاحترام والحماية، يقول[2]:

عمـــر العظـــيم ألســـت أعـــدل فـــاتح شـــهدَتْ بعفـــة نفســـه الأقـــوام
أعداء قومك حين يقرن ذكرهم بـــك، حُطمـــوا وكـــأنهم أصـــنام
فتحوا فجاروا واعتدوا، يا ويحهـم أعـــداء قومـــك نـــاكثون لئـــام
فتحوا الـبلاد وقـال فـاتحهم: هنـا مجـــد الصـــليبيين عـــاد يقـــام
فتحـــت أنـــت وقلـــت: نصـــرانية لا تحقـــروا، وليحمهـــا الإســـلام
لا تشـــتموا يـــا هـــؤلاء، فإننـــا قـــوم علـــى رغـــم الزمـــان كـــرام
خلـــوا الـــبلاد لنـــا وإلا بيـــنكم يـــا عـــابثين وبيننـــا الأيـــام!

يستغل الشاعر كل مناسبة حتى مناسبة الرثاء ليحض على مقاومة الغزاة المستعمرين، ويناشد أبناء شعبه على محاربتهم بغية تحرير الوطن، ولا بد أن يأتي يوم ينقشع فيه الظلام، ويحل محله

---

[1] الرحيل، عمر العظيم، ص107.

[2] ن.م، ص108.

الضياء والنور. ويسقط شهيد آخر، ملكًا من ملوك العرب، يرى لزامًا عليه رثاءه، لا سيما وأنه من الهاشميين الذين يحترمهم ويجلهم، هو علي بن الحسين. يحاول الشاعر استخدام صور شعرية ذات دلالات دينية، كما فعل في رثاء غيره من الملوك والشخصيات المهمة، فيبدو هنا أنه رجل يؤمن بالله واليوم الآخر، فيقول[1]:

رزئنـــا في الهـــاشميين ضـــروب ... زلزلت مـن هولهـا صـم الجبـال
فيصل غاب ومن قبل حسين ... والأمـير شـاكر، أسـد النضـال
.. وأخـــيرًا قـــد رزئنـــا بعلـــي ... المليـك المرتجـى سـامي الفعـال
النقـي الطـاهر القلـب.. ومـن ذا ... كعلـــي في المزايـــا والخصـــال
وكـــأني بعلـــي حـــال، روحًـــا ... من جمال صورت أو مـن جـلال
يـــا مليكًـــا غـــادر الـــدنيا ليرقـــى ... جنة الخلـد، وفـردوس الجمـال

ويعبر الشاعر، منتهزًا هذه المناسبة، عن أحاسيسه، وفلسفته الكونية، ومقته للدنيا الفانية وتوقانه للحياة الأخرى، ولضجعة الموت، فيقول مخاطبًا روح المرحوم الملك علي، فهو بذلك يعبر عن المشاعر الذاتية والإنسانية[2]:

حـــدثينا الآن يـــا روح علـــي ... عـن أحاديـث الخلـود والـزوال
لم حقرت الملك والدنيا وماذا ... كنت ترجين من الأخرى تنالي؟
حـدثي، أنـت خلصـت مـن قيـود ... حدثي، أنت انطلقت من عقـال
حـــدثي عمـــا تـــرين مـــن أنـــاس ... فوق هذي الأرض تنزو كالسعالي
حـدثينا عـن بـني العـرب ومـاذا ... حـل فـيهم مـن عـذاب ونكـال
حـــدثي عمـــا تـــرين مـــن شـــرور ... وخصـــوم دون جـــدوى وجـــدال
حـدثي: مـا المـوت يـا روح علـي ... أحقيـــق هـــو جســـر الانتقـــال

[1] الرحيل، الى روح جلالة الملك علي، ص 139.

[2] ن.م، ص 140.

حــدثني عمــا لقيــت في الأعــالي هل لقيـت فيصـلا زيـن الرجـال
يا حبيبي الموت زرني إن روحي عافت الأرض، وتاقـت للأعـالي

رثى الشاعر أيضا شيخ المجاهدين الشيخ عز الدين القسام حينما استشهد في أحراش يعبد – قضاء جنين– فيقول[1]:

يــا شــهيد الــدين والــوطن وعظيمًــا ثــار لم يهــنِ
أنت حي في ضمائرنا أنت لا تفنـى مـدى الـزمن

الغزل والحب

الشعر الوجداني مرتبط بالإحساس، إما باللذة أو الألم، ويؤلف ذلك جزءًا كبيرًا من حياة الشعراء عادة، حيث أن النزع إلى هذا الشعر طبيعة متأصلة في نفوسهم، وهو تعبير عن معاناة أو عاطفة وحنان تظل كبيرة لديهم. وكثيرًا ما يخضع الشاعر في شعر الغزل للمحبوبة، فتراه يخاطب محبوبته راجيًا رضاها وسعادتها، ولهذا فهو لا يتكلف الحب بل يحس به إحساسًا عميقًا، والألم والمحبوبة والصديق هم مصدر الحياة الهانئة، ومنهل الإلهام والسعادة. "والوجدان الذي تداعبه المرأة ويهزه الجمال الروحي، لا يمكن إلا أن ينتج شعرًا مؤثرًا، سماته الرقة والعذوبة".[2]
نظم مطلق عبد الخالق شعرًا يختص بالحب والشعب، وقد طغت قضايا الوطن والشعب على ما سواها، ومزج بين حبه لوطنه وحبه لفتاته. تحدث عن الحب والهوى، وشكا البعد والجوى، وتشوق إلى المحبوبة وهفا قلبه إلى لقائها.[3]

[1] الرحيل، الشيخ القسّام، ص 174.
[2] مصطفى محمد الفار، الشاعر أبو سلمى أديبا وإنسانًا، ص118.
[3] كامل السوافيري، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص145.

ونظم مطلق عبد الخالق قصائد حب وغزل، وتغنى بالمرأة وجمالها وسحرها، وأفرد لها عدة قصائد تفوح بعبق الحسن والجمال، بيّن شدة شغفه وغرامه بالفتيات الحسان، إلا أنه حذر من الانزلاق إلى مستويات دنيا، تفقد الفتاة من خلالها شخصيتها وكيانها وجمالها وعفتها.

لكنه وفي بعض الأحيان، يصفها بالشيطانة التي ترمي بشباكها لتصطاد فريستها، ويصف لسانها بالسلاطة وقلبها بالمصيدة اللذين يوقعان الإنسان في شباك الخطيئة، فيستخدم صورًا شعرية أخاذة تكاد تحس بها من شدة وضوحها ووقعها على المتلقي، فيقول[1]:

شـــيطانة لا تجـــاري تبـــدو بشـــكل مـــلاك
لســـانها مـــن خيـــوط وقلبهـــا مـــن شـــباك
فـــإن عثـــرت بخـــيط قضـــيت.. دون حـــراك

كما يدعو الشاعر مطلق عبد الخالق المحبين إلى عدم الإفراط في حب المرأة، لان هناك حُبًا آخر وهو حب اللّه الذي لا يقل أهمية عن حب المرأة إن لم يَفُقْه، والذي يكون سببًا في السعادة، فيقول[2]:

يا مدعي حبّ رب العرش مستترًا بحبك المـرأة الحسـناء في البشـر
لـو كنـت حقًـا تحـب اللّه حُبكهـا لكنت أسمى من الأفلاك والقمـر

مجّد مطلق عبد الخالق الجمال إلى درجة التقديس، وحث على الخروج للطبيعة والاستمتاع بجمالها، فيقول[3]:

أرقصـــي فالحيـــاة غادتي مـن خيـال
واهزجـــي في الفـــلا وابســـمي للجمـــال

[1] الرحيل، صور مضطربة، ص.42.

[2] ن.م، ص43.

[3] الرحيل، رقصة الروح، ص59.

ويضيف قائلاً[1]:

والنســـيم العليـــل غـــادتي داعبيـــه
والحبيب الجميل يا حيـاتي أذكريـه

يصف الشاعر حنينه للحبيب، ويحثه على استمرارية اللقاء، ويذكره بذكريات الماضي، فيقول[2]:

يـا حبـيبي عـد إلينـا هـــل نســينا ماضـــينا
قد وعدتم أن تعودوا كـان وعـد الحـر دينـا

يشدد الشاعر على أهمية وقيمة الذكريات والحنين إلى المحبين، لأنها تبعث في النفس الراحة والنشوة والطمأنينة، فيقول مخاطبًا محبوبته "سلمى"[3]:

إن كنتُ "سلمى" أذكر البستان هل تذكرين
أيام كنا في الهوى سيان نحن اليقين
أيام كنا تحت دوح البان صرعى الحنين
والطير يشدو أعذب الألحان فوق الغصون
والزهر نراه مورق فينان بادي الفتون
والبدر ساهٍ ساهم حيران دامي العيون
والليل ساج والهوى نشوان جم الشجون
والقلب "سلمى" عاشق ولهان هل تذكرين

يقدس مطلق عبد الخالق الحب ومعناه، ويرى فيه تعبير عن عاطفة سامية، تنسيه آلامه ودموعه، وتبعث فيه الأمل، وتحرك عاطفة الحب النبيلة، فيقول[4]:

---

1. الرحيل. رقصة الروح، ص 57

[2] الرحيل، الى حبيبي الروح، ص65.

[3] الرحيل، هل تذكرين، ص 68.

[4] الرحيل، الغادة الباكية، ص 71.

تئـــنين، آه، فيبكـــي الفـــؤاد لآهـــكِ.. كالديمـــة الهاويـــة
ويهفـــــــو إليـــــــك وفي وده تـــثير شـــجاهُ آهـــة ثانيـــة
تصـــور فيـــك شـــجون الحيـــاة ولـــذات آلامهـــا الطاغيـــة
وتبعـــث في الأمـــاني العـــذاب وتوقـــد نـــار الهـــوى الخابيـــة
فـــأسمو بروحـــي إلى عـــالم قدســـية الحـــب بـــه ســـامية
وأنســـى دموعـــكِ في لـــذتي وأذكرهـــا في حـــرقتي الداويـــة
فيـــا لـــيَ مـــن والـــهٍ عاشـــق ويـــا لـــكِ مـــن غـــادة باكيـــة

وفي قصيدة أخرى "طيف الحبيب"، يصف مطلق عبد الخالق حنينه إلى محبوبته، ويرى فيها شمس آماله المشرقة، التي تبعث النشوة فيه، وتكون مصدر إلهامه وهواجسه، وعروس أشعاره، ولا يستطيع المقاومة، بل يذوب في هواها، ولا يخشى في حبها لومة لائم، فيقول[1]:

ويهزنـــي شـــوقي إليـــك فـــأنثني متلـــهفًا والـــدمع مـــلء عيـــوني
طيف الحبيب وأنت زهرتـي الـتي أحيـــا لهـــا وغلالـــة النســـرين
يـــا شمـــس آمـــالي وجنـــة نشـــوتي ونســـيم زفراتـــي وراح أمنـــيتي
أنـــا في هـــواك أذوب كـــل هنيهـــة حبًـــا ونـــار محـــبتي تصـــليني
طيف الحبيب يلومني فيك الـورى ولـــو أنهـــم عرفـــوك مـــا لامـــوني

ويتوجه مطلق عبد الخالق إلى محبوبته، ويلومها على حرقة البعاد والجفاء، وعلى قضاء جُل وقته في سهر الليالي يفكر فيها وبجمالها وحسنها، فآماله وأمانيه لم تلق أذانا صاغية ولا تجاوب يفرح القلب، ويلهب المشاعر، ويدغدغ الأحاسيس، يتغنى بها وبأعضاء جسمها لعلها تعوض بعض الشيء من الأسى والفراق والهجر، فيقول[2]:

وأســـهر الليـــل أليـــف الـــدجى حيران دامي القلب في مضجعي

---

1 الرحيل، "طيف الحبيب"، ص73.

[2] الرحيل، "كبرياء الحب"، ص75.

عيناك يا هذي شعاع الضحى ووجهـك الزاهـي سـنا الأربـع
وأنفـــك الاقنـــى بـــه فتنـــة! تـــدب في الأحشـــاء والأضـــلع
وثغـــرك البسّـــام يســـبي النهـــى يضـــل فيـــه النـــابغ الألمعـــي
وشـــــعرك الفـــــاحم في ليلـــــه كصـدرك الرجـراج في الشعشـع
جميلـــة يـــا هـــذه، حلـــوة إن بنتِ في رأد الضحى تصرعي
لكـــــنني في كـــــل ذا زاهـــــدٌ زهـدَ الـذي شـكواه لم تُسـمع
هـل خلـتِ يـا هـذي بـأني فتـى أذوب كالشـــمعة أن تســـطعي
حسبت أن الغيد رسل السماء وكنـــت في الحســـبان كـــالأمع
وخلـــتهن الزهـــر يحيـــي المنـــى فـــإذ بهـــن الشـــوك في البلقـــع
بعـــــودة الأيـــــام لا تحلمـــــي وفي خفـوق القلـب لا تطمعـي
هيهـات ذاك العهـد شـيء مضـى ولم أعـــد بالعاشـــق الطيّـــع

اعتاد مطلق عبد الخالق أن يؤم النوادي الليلية والملاهي ليقضي فيها ليالي أنس، يشرب ويأكل ويلهو ويلعب مع الراقصات والغواني الغيد، كأن يحلو له مسامرتهن وقضاء الوقت بصحبتهن، فيصف تلك المشاهد، فيقول[1]:

وليلـــة طـــاب بهـــا مجلســـي بـين الغـواني الغيـد والأكـؤس
في غرفة أريجها عاطر يـزري بـريح الـورد والنـرجس
والغيـــد مصـــفوفات في قاعهـــا مثل الجواري الخـنس الكـنس
يحلـــو لهـــن أن يـــرين الفتـــى صـريع حسـن الـزي والملـبس
لباســـهن الخـــز مـــن أحمـــر وأخضـــر جـــذاب للأنفـــس
وأبـــيض يزهـــو علـــى أبـــيض جسـم لطيـف نـاعم الملمـس
كواعـــب يخلـــبن لـــب الفتـــى في حلـــل الـــديباج والســـندس
مـــن آل غســـان، أبـــاة الأذى كـــرائم المنبـــت والمغـــرس

[1]. الرحيل، ليلة أنس، ص102.

يلوم مطلق عبد الخالق إحدى محبوباته لعدم وفائها لحبه، رغم حبه الشديد لها، وعدم قدرته على فراقها وهذه "ليلى" محبوبته يتوسل إليها لما أصابه من نحول في الجسم وأرق، أن تعود إليه لأنه لا يقوى على مقاومة الهجر الذي أضناه كثيرًا، ولا يقدر أن يصبر على البعد والفراق، فتركته في حيرة من أمره، فها هو يتوسل إليها أن تعود إليه ولا تهجره، فيذكرها بالأيام الخوالي، حيث كانا يعيشان في هناء وسعادة، وحب وعشق، ويقضيان الليالي معًا في هدوء وحب وغرام، يذكرها بشرب الخمر معًا، فيقول[1]:

أنـــا أهـــواك يـــا ليلـــى ... أنـــا يـــا ليـــلُ أهـــواك
ســـواد القلـــب مـــأواك ... وهـــذا القلـــب مثـــواك
وحـــبي طـــاهر صـــاف ... وقلـــب هـــائم صـــب
ونفســـي في الهـــوا ذابـــت ... وطـــار القلـــب واللـــب
وأمـــا الـــروح يـــا ليلـــى ... فقـــد آلمهـــا الخطـــب
وقـــد أضـــناني البعـــد ... وهـــاج الشـــوق أشـــجاني
ولم أصـــبر علـــى الهجـــر ... وذاك الصـــد أشـــقاني
وهـــذا الـــذنب يـــا ليلـــى ... ألا يمحـــى بغفـــران؟
وهـــل تنســـين تشـــرابي ... كـــؤوس الخمـــر مـــن فيـــك
وبـــدر الليـــل مســـتحي ... وصـــوت الحـــب يـــدعوك
وفي الكـــرم تفيأنـــا ... ظـــلال التـــوت والـــتين
وكـــان خفـــوق قلبينـــا ... كخفقـــات الأفـــانين
هيـــا يـــا ليلـــى تمـــردت ... فمـــا أبقيـــت لـــي صـــبرا
وهبـــت القلـــب بـــاليمنى ... وعـــدت ســـلبت باليســـرى
فهـــل أوليـــتني وصـــلاً ... ليتلـــو وصـــلك الهجـــرا؟
أعيـــدي العهـــد يـــا ليلـــى ... وإلا أفضـــح الســـرا!!

[1] الرحيل، أنا أهواك يا ليلى، ص104.

قصيدة " بنت الدلال" هي أول قصيدة غرامية نظمها الشاعر حينما كان لا يزال في مقتبل عمره، فيعترف بقوة الغرام وتأثيره على تبديل وتغيير أحوال الإنسان وسلوكه، فيضع لنفسه معايير للحب والغرام، ولا سيما أنه شاب لم يخبر الحياة بعد، ولم يَعِ منها الشيء الكثير، فيصف مفهوم الغرام ومعنى الحب، فيقول[1]:

بنت الدلال! أما كفاك دلالا؟ أقلقتِ مني البال والبلبالا
وآثرت كامن لوعتي وتركتني صبًا مشوقًا ليس ينعم بالا
هل نظرت دمعي يسيل صبابة والله لولا حبه ما سالا
أحللتِ قتلي واستهنت بصوتي لله! هل صار الحرام حلالا؟
بالله مالكة الفؤاد ترفقي بفتى غدا بين الأنام خيالا
هو في الغرام تغيرت أحواله إن الغرام يغير الأحوالا
إني اجتهدتُ فنلت عطفك منيتي وتركت باقي العاشقين كسالى

يضعف الشاعر مطلق عبد الخالق أمام الفتيات الجميلات الحسان، ولا يستطيع مقاومة جمالهن، فقد زار الشاعر المعرض العربي، فوقعت عيناه على فتاة جميلة، فاسترعت انتباهه، وشدّته كثيرا بسبب نظراتها المتواصلة في أرجاء المعرض، فلم يلبث أن تقدم منها وسألها عما "تنظر"، فأخذ يصف مفاتنها وجمالها بدقة واتساق، عسى أن يظفر بشيء منه، فيقول[2]:

وفتاة رأيتها ذات دل! بالحشا والفؤاد والروح تفدى
ترسل الطرف في السموات حينًا ثم نحو الأرضين أخذًا وردا
قلت: "ما تنظرين"؟ قالت "فتونًا" قلت: "كل الفتون فيك تبدى"
ليس ما تنظرينه فوق إلا كهرباء، وتحت حورًا ومردا
كل ما في المكان من كهرباء خلته الآن فوق نهديك عقدا

1 الرحيل، في المعرض العربي، ص 127.

[2]الرحيل، بنت الدلال، ص118.

كـل مـا فيـه غـادتي، مـن شـباب أو حوار، ينسـاق للحسـن عبـدا
فيــك يــا ربــة الجمــال معــاني كل مـا في المكـان جميعـا وفـردا

يمقت الشاعر مطلق عبد الخالق المراقص والفتيات اللواتي يأتين إليها ليلاً ليقضين فيها أوقاتا مع الشباب، فيوجه انتقادات لاذعة لأولئك الناس من ذكور وإناث الذين يذهبون للمرقص ليلتقوا بالفتيات اليهوديات وغير اليهوديات، من أجل الشرب والسمر والسفاح، وقضاء الوقت واللهو، وتبادل القبلات، إضافة إلى تبذير الأموال وضياع الوقت. إنهم يقضون أوقاتهم في الملاهي بدلاً من أن يستجيبوا لنداء الوطن ويهبوا لنجدته، فهو أحق بهم من الملاهي، ووطنهم بحاجة إليهم في هذه الظروف الحرجة، فيقول[1]:

مـرقص ضـاحك يحـف بـه البشـــ ر، ويغـدى في صـحنه ويـراحُ
مستباح الحمى، وفيه أناس كـل مـا فيـه عنـدهم مسـتباح
بعيـــون وكلـــها نـــاظرات لجســـوم، وكلـــها أكشـــاح
كمـــن العهـــر والقـــذارة فيهـــا فهـي مغـدى للمغتـدي.. ومـراح
همهـم في الحيـاة أكـل وشـرب وغنـــاء، وخمـــرة وســـفاح
والنسـيم العليـل تكمـن فيـه قـبلات، والمـاء خمـر وراح
مـرقص عابـث يعـج عجيجًـا كـل مـا فيـه جلبـة وصـياح
غـاض مـاء الحيـاء فيـه وأضـحى كـل "شـيء" في جوفـه يسـتباح
جسـد داعـر، وجلـد سميـك دونـه في "السـماكة" التمسـاح
فيـه"رفكـا" وفيـه "ليـزا" وليلـى وخزامـى، ونـرجس، وإقـاح
إن ضـحكن، يقطـرن سمًـا زعافـا والابتسـامات عنـدهن سـلاح
صـادقات الخيـال يعـرفن ممـن تســتغل الأمــوال والأربــاح
حسـبكم، قـوم، نشـوة وهيامـا غاب بـدر الـدجى ولاح الصباح
طالمـا أنـتم أسـاري هـواكم ليس يرجى لـذي الـبلاد نجـاح

نستطيع أن نلاحظ أن الشاعر مطلق عبد الخالق تعامل مع الحب والمرأة بإحساس جميل ومرهف وبعاطفة جيّاشة تفيض بألوان شتى من ردود الفعل لمشاهد الحب والغزل، نجح في التعبير بلغة رقيقة وبسيطة وشفافة ومباشرة عن مدى حبه للمرأة، فتغنى بجمالها وجسمها، وبما أفاضت عليه من رجفات سريعة. فالمرأة بالنسبة له كائن حي له استقلاليته وكيانه، لكن هذا الكيان أحيانًا يؤدي بتصرفاته وسلوكه إلى انهيار خلقي، حينما تعرض المرأة نفسها للابتزاز الجنسي، وتوقع نفسها في منزلقات رخيصة، كالرقص في النوادي، ومعاقرة الخمر مع شباب فقدوا مروءتهم وحسهم الوطني والإنساني، فالشاعر يندد ويحذر بشدة وصرامة أولئك الذين يفضلون الكأس على الوطن، ويهيب بهم إلى الرجوع لرشدهم وصوابهم، لأن الواجب الوطني يقتضي منهم مزيدًا من البذل والتضحيات، والنزول إلى ساحات القتال والمقاومة لدرء خطر المستعمر عن البلاد وأهلها.

الطبيعة

حينما نقرأ القصائد التي تطفح بوصف الطبيعة بصورة تفصيلية، نشهد أن الشاعر يستخدم تعابير في وصف الطبيعة بكل ما تحتويه من أزهار، وأشجار، وشمس، وقمر، نحسّ بتماهي الشاعر مع الطبيعة، والتصاقه بمفرداتها، والتحامه مع نسماتها التي تحيي النباتات الميتة، فهو يرى أن الحياة والطبيعة كيانان يسيران حسب وفاق تام، مما يؤدي في النهاية إلى سعادة الإنسان، وإلى العيش بسكينة واطمئنان. فهي تزخر بالتعبير الفني عن إحساسات مثقفة، وأخيلة عميقة، تتصف بحب المناظر الطبيعية الخلابة، فتقترب بذلك من الشعر الرومانسي.

يبدو لنا أن الشاعر مطلق عبد الخالق قد اطّلع على الأدب الغربي، وتأثر بشعراء الرومانسية البريطانيين أمثال وردزورث وشيلي وشكسبير، ففي قصيدته "نيسان" يخاطب الشاعر شهر نيسان بكل ما فيه من جمال وبهاء ورونق، وقد سبقه إلى ذلك شكسبير بتصوير جمال الحياة في شهر نيسان، شهر الربيع والمياه وتغريد الطيور واخضرار الأعشاب، وتلون الأزهار[1].

ففي قصيدة "نيسان" يصور الشاعر مطلق عبد الخالق ملامح وخصائص هذا الشهر الذي يقع في

1 سونيت 18 لشكسبير، وقصيدة لوردزورث، "النرجس".

فصل الربيع، فيقول[1]:

نيســـان يـــا روح القلـــو ب وفتنة الربيع الخصـيب
ومقرب الماضي البعيـ د، ومبعـد اليـوم القريـب
ومحـــرك الـــذكر العـــذا ب تشع في قلـبي العجيـب
مـــاذا أقـــول؟ أشـــاعر أنا في ربوعـك أم خطيـب؟

يصور لنا الشاعر مطلق عبد الخالق ما نراه من خصب ونماء في هذا الشهر، وكيف أن الشمس تغذي الأرض والنبات والإنسان بأشعتها ونورها، لتستمر الحياة، وهنا أيضا استخدم الشاعر الشمس والعندليب متأثرا بالشعراء الرومانسيين الغربيين، فالشمس والعندليب هما جزء من الطبيعة النقية الصافية البعيدة عن ملوثات الحياة المادية، فالشمس ببهائها ونورها، والعندليب بتغريده العذب، فيقول[2]:

نيســـان مـــا هـــو الجمـــا لُ يســـيل في أرج وطيـــب
الزهر يرقص في النسيـ م، علـى غنـاء العنـدليب[3]
والعشـــب أخضـــر كالتقـــا ءِ، وكالحيـــاء، وكالأديـــب
يختـــال في بـــرد المهـــا بـة، وفي المجـيء وفي الـذهوب
فـــإذا القلـــوب لـــه كـــؤو س والكـــؤوس لـــه قلـــوب
والشـــمس في كبـــد الســـما ء، تشـــع بـــالنور العجيـــب
وتضـــيء أرجـــاء البسيـــ طـــة، لا ذواء ولا شـــحوب
وتســـيل في شـــفق الضـــحى وتـــذوب في عشـــق الغـــروب[4]

---

[1] الرحيل، نيسان، ص155.

[2] الرحيل، نيسان، ص 155.

[3] هذا البيت متأثر ببيت من قصيده لوردزورث Daffodils.

[4] هذا البيت يشبه بيتا من قصيدة للشاعر ووردزورث Daffodils: Fluttering and Dancing in the Breeze.

شهر نيسان، شهر الجمال، شهر المتعة والبهجة، شهر تتفتح فيه الأزهار، وتجري الينابيع، وتغرد الطيور، فتمنح الحياة معنى وقيمة، وتلتصق بالطبيعة ليخلقا انسجاما رائعًا من الوحدة العضوية والتاريخية، فالطبيعة مصدر مهم لرفاهية الإنسان، إذ تنسيه متاعبه وآلامه، وتغذيه بالرضي النفسي والسلام والاستقرار. فالطبيعة من وجهة نظر الشاعر مطلق عبد الخالق كيان مقدس لم تستطع يد الإنسان العبث به وتشويهه رغم كل المحاولات البائسة، فقدسية الطبيعة وكونها محرابًا يؤمه الشعراء لاستلهام موضوعات قصائدهم، هي أيضا من الموروث الرومانسي الغربي، يقول[1]:

نيســـان مـــا هـــذا الربيـــع يفـيض، مـن غـير نضـوب
بالحسن والإمتاع والسحـ ر الحـــــلال وبالغريـــــب
الغصـــن يحـــدب في الغـــدا ة، وفي العشـي علـى الكثيـب
حـدب الأديـب علـى الطبيـــ عـة، والمحـب علـى الحبيـب
والزهـــر يلثمـــه النسيـــ يـم، ولـيس ثمـة مـا يريـب
والطـــير يشـــجيه الصـــدا ح، ولا يهدهـــده النحيـــب
فـــإذا الطبيعـــة والحيـــا ة هنـــا علـــى وفـــق وطيـــب
وإذا الســـــلام يـــــرف لا عســـف ولا شـــاة وذيـــب
وإذا الســـــعادة والسكيـــــ نـــة والحيـــاة هنـــا تطيـــب

الطبيعة الخضراء الزاهية بألوانها القزحية، عادة ما تقترن بالربيع صاحب الحلة القشيبة من الأزهار الملونة والأعشاب الخضراء، الربيع الذي يزهو دائمًا بما لديه من مادة خصبة ودسمة للشعراء، فالشاعر يخاطبه بما يليق به من جمال، ويحويه من زهور وماء وهواء. إنه ربيع أهل الحب والغرام، ربيع العاشقين والمغنيين، ربيع الحياة المتدفقة في الأودية.

[1] الرحيل، نيسان، ص 156.

يتطرق الشاعر مطلق عبد الخالق هنا إلى تصوير الزهور وكأنها متعبِّد تقي يصلي في محراب الطبيعة، يسجد في جوف الليل والناس نيام، فيقول[1]:

مرحبًـا بـالربيع يختـال بشـرًا نافشًـا غلائـل الكـون سـحرًا
مرحبًا بالزهور فوّاحة العط ر، وبالطير تنثني، هـي سـكرى
مرحبًـا بالسـماء رقراقـة النسـ مات حوراء، تنجلي غير حيرى
مرحبًـا بـالهواء والمـاء والأعشـا ب تبـدي سـرائر الفـن جهـرا
مرحبًـا بالجمـال والحـب والأحـ لام، تسـري وباللبانـات تـترى
مرحبًـا بالحيـاة بَسّـامة الثغـ ر تنـاغي صـوادح الطـير فجـرا
والنسـيم العليـل يحيـى الأمـاني باعثًا من مباسم الزهر، عطرا!!
والزهور!! الزهور! يا لهـف قلـبي ما أحيلى الزهـور، طيبًـا ونشـرا
مـا أحيلـى انحناءهـا باسمـات خافقـات القلـوب يقـذفن جمـرا
ما أحيلى سجودها في سـجون الـظ ل ترنـو غلائـل الوشـي حمـرا

يمجد الشاعر الزهر ويعتبره أهم من الحبيب، بحيث يمكن للمحب استبدال محبوبته بالزهر الفواح، الذي يفوح العطر من مبسمه، لأنه بذلك يحرره من قيود الحب، فيقول[2]:

إنهـا منـيتي.. تنـادي برفـق "شاعري الوالـه الحبيـب الأبـرّا
أنا، يا شاعر الحياة، الـ حب فـاجرًا وقبّـل الخـد تـبرا!
شاعر الحب، حسبك الزهر يغنيـ ك عـن الغيـد، شـاعرى وابـق

الربيع بالنسبة للشاعر ملاذ من هموم الحياة، وهروب من شقاوة الحب، فظلال الربيع الدافئة تنقذ الشاعر من الحب الذي طالما سئمه وملّه، وزاده عذابًا وإحباطا، فهو يهرب من حب الحسان

[1] الرحيل، غرام الزهور ص 128.

[2] الرحيل، غرام الزهور ص 129.

القذر الفاحش ويلجأ إلى الطبيعة كمنقذ للمعذبين فيقول[1]:

آه يـــا زهرتـــي، كفـــاني عـــذابًا ... لا تـــثيري الشـــجون فالقلـــب
أنا، يا زهرتي، سئمت حياة الـ ... ـحب، حب الحسان والغيد طـرا
زهـــدتني قـــذارة الحـــب في الغيـــ ... ـد، فصـار الفـؤاد مـن ذاك قفـرا
فاسترقت الخطـى يحـط بـي الشـــ ... ـك، إلى حيـــث أقســـر الحـــب
جئت يا زهرتي، إلى حيث أشريـــ ... ـك ظلال الربيع، بالغيـد، زهـرا

يصور الشاعر مطلق عبد الخالق مشاعره وانفعالاته حينما كان في غمرة نشوته بين الزهور، فيحزن على انقضاء الفترة التي قضاها بينها، مقبّلاً حينًا ومستنشقًا حينًا آخر، فشعر خلالها براحة نفسية حيث نسي عذابه وآلامه في ثنايا النعيم، فتلك المشاهد الطبيعية ستظل شاهدًا حيًا في مخيلته على حبه للزهور والطبيعة وغرامه بهما، فيقول[2]:

وانقضـت سـاعة نعمـت بهـا بالـــ ... ـزهر في الحر! والهوى مـا أخـرا
كنت فيها أقبل الزهر طورًا ... باشتياق، وأنشـق العطـر أخـرى
إنهـــا ســـاعة تلاشـــى عـــذابي ... في ثنايـــا نعيمهـــا... واســـتمرا
لسـت أنسـى روائـع "الفـن" فيهـا ... وغـــرام الزهـــور.. واللـــثم ســـرا

يركز الشاعر مطلق عبد الخالق بصورة خاصة على جهد الفرد المبذول من أجل الهروب من عالم المألوف ومن السيطرة الاجتماعية والأوضاع السياسية السيئة، عبر الطبيعة الخارجية من ناحية، وطبيعة الإنسان وخياله من ناحية أخرى. فهو يعتمد بذلك على العاطفة والخيال، أما العاطفة فتحركها دواعي الحزن، والجمال والسخرية، والمأساة، بينما الخيال، هو قدرة العقل على تخيل مشاهد ومناظر خلابة، أو أحداث غير موجودة أو لا يمكن رؤيتها.

---

[1] الرحيل، غرام الزهور، ص129.

[2] الرحيل، غرام الزهور، ص129.

الأجواء النفسية

فلسفته الحياتية:

لقد حلّل مطلق عبد الخالق هذه الحياة الزائلة تحليلاً منطقيًا بديعًا من خلال القول المرسل والإلهام المنزل فيقول[1]:

وما أنـا يـا قـوم بالبـائس الـــ شقي بـل السـاخر المحتقـر
وماذا تراها تكون الحياة لا عـدو بهـا بائسـا منكسـر
بـني النـاس! دنيـاكمُ جيفـه وليس على أرضـكم مـا يسـر

ارتكزت فلسفته على توقانه الشديد لملاقاة الله، وعلى ازدرائه للحياة الدنيا الزائلة الفانية، حيث يقول في قصيدة إلى روح جلالة الملك علي[2]:

يا حبيبي المـوت زرنـي إن روحـي عـافـت الأرض، وتـاقـت للأعـالـي

بقي مطلق عبد الخالق ساخرا هازئا من هذه الدنيا.وكان شعره غريبًا ليس لأنه يجعل الإنسان ساخرًا من هذه الدنيا فحسب، بل لأنه يجعل الأرواح المسجونة في الأبدان طليقة حرة في العلا، تتذوق فيه وهي في سجن الدنيا لذة النعيم للدار الآخرة، دار الخلود الأبدي.

كان ذا بصيرة نيرة تستشف الحجب، فكان يرى الحياة الدنيا على حقيقتها العارية بدون هذا الزخرف الذي يخدع الكثيرين ويموه عليهم، فيرتكبون الموبقات والشرور في سبيل عرض زائل، لذلك كان يحتقر كل تلك الأباطيل ويسمو فوقها بنفسه الشريفة وروحه العالية ويصيح بالناس قائلاً[3]:

---

[1] الرحيل، هوان الحياة، ص177.

[2] الرحيل، إلى روح جلالة الملك على، ص140.

[3] الرحيل، تأملات مضطربة، ص84.

أســـرار هـــذي الـــدنيا مغلقـــة في الجـــد مهـــذارة وفي اللعـــب
إنا نلاقي الهناء في حزن كمـــا نلاقـــي الشـــقاء في طـــرب
والـــدهر تلـــهو بنـــا حوادثـــه ونحـــن فيـــه نغـــوص في ريـــب
واحســـرتا للأنـــام مـــن ضـــحك يـــنم مثـــل البكـــاء عـــن نصـــب

وليست هذه القصيدة الأولى التي ينصح الناس فيها أن يخففوا من تكالبهم على المال وزخرف هذه الحياة، وأن يتبعوا القناعة ويعلموا أن الأخلاق الفاضلة الحسنة هي خير كنز لا يفنى[1]:

يا مـال! في الأفـق البعيـد سـحاب وعلـى معـالم صـفحتيك ضـباب
يا مال! بينك والنواظر خشع طمعـا، وبـين العـالمين حجـاب
تبـدو لهـم، فـإذا الحيـاة جميلـة وإذا يـا مـال الحيـاة عـذاب
والناس لو علموا الحقيقـة، أدركـوا يـا مـال! أنـك سـاحر كـذاب
يـا مـال! أنـت أخـس شـيء منـزلاً عندي، وأنت، كما أراك، تـراب
أنـا للعـلا أرنـو فمـالي مطمـع فيـك، ومالـك في حمـاي ركـاب

عاش مطلق عبد الخالق في عالم غير العالم المادي الزائل، وتمنى دائما أن يغادره وأن يلقى الله في الحياة الأبدية، لينعم بنعيمها ويتمتع بلذتها، وليس كنعيم الدنيا الزائف الزائل الذي يخدع الإنسان ويوهمه بأنه كائن له كيان واستقلالية.

فالحياة قصيرة الأمد، ولا بد أن تنتهي، فيحذر الناس منها وينصحهم بالعمل للحياة الأخرى الباقية والدائمة، فيقول[2]:

فترفقـــا أعمـــاركم موقوتـــة وتعففـا هـذي الحيـاة سـراب
فإذا ادخرتم، بعد غابر يومكم للأمـس أمسـكم أسـى وتبـاب
الله يســـخر مـــنكم، وهيـــامكم بالمـــال، والأبـــرار والأربـــاب

[1] الرحيل، يا مال، ص 16.

[2] الرحيل، يا مال، ص16.

ثم يقول في قصيدة" يا أخي " ساخرًا من هذه الحياة طالبًا ومتمنيًا الموت لينتقل إلى العلا[1] :

وعـلام البكـاء، يـا صـاح، والدنـــ يـا دوي، يضـيع فيـه البكـاء
أنا ما كنت في حياتي شقيا بـــل ســعيدًا تحفــني نعمــاء
ســـاخرًا هـــازلاً أمـــر مـــرورًا بحيـــاة ألفاظهـــا جوفـــاء
خاشـع القلـب ذاهـل عـن أمـور طرفاهـــا.. الســـراء والضـــراء
وجهـــتي الله، والســـماء طلابـــي وكـــذا المـــوت غـــادتي الغيـــداء

يظل الشاعر دائما يفكر في مبهمات الحياة، وألغاز الوجود، وما سيكون بعد هذا الوجود، فهذا التفكير الفلسفي شغله عن أمور حياته اليومية وسبب له الأرق والقلق، وأصبح يعيش مضطربًا، بعيدًا عن الاستقرار النفسي والطمأنينة فيقول[2]:

ومـــالي أنـــا ذاهـــل حـــائر ومـــاذا عرانـــي، ومـــاذا فيـــه؟
أفكر في مبهمات الوجود ولغـــز حيـــاة الـــورى الفانيـــة
وســـر الخلـــود بعيـــد الممـــات وأحـوال تلـك القـوى الخافيـة!
وأســـأل في وحـــدتي: مـــن أنـــا ومـــاذا علـــيّ، ومـــاذا ليـــه؟
فأحتـــار في حـــل هـــذه الرقـــى وأصـــدم بالخيبـــة القاســـية
فـــإذا بفكـــري قـــبس مظلـــم وإذا بـــذهني شـــعلة خابيـــة

ينظر الشاعر مطلق عبد الخالق إلى الحياة المزخرفة البرّاقة فيعبر عن مدى شفقته لهؤلاء الناس الذين يلهثون وراءها، فيرتكبون المعاصي والآثام جريا وراء ميولهم ونزواتهم، فيطلب من الله أن يغفر لهم ويتوب عليهم، وهو يرى الناس بائسين، ويود لو يعودوا إلى جادة الحق وإلى رشدهم لأنهم لابد راجعون إلى الله فيقول[3]:

---

[1] الرحيل، يا أخي، ص30.

[2] الرحيل، الطلاسم، ص34.

[3] الرحيل، دنياي.ص62.

يا ويلـهم! هاموا بما في الحيـاة ... مـن زخـرف ينـآء نحـو الـزوال
فـهـم هـنـا، بـئـس الـخـطـاة ... وهـم هنـاك، مـن قبيـل الشـمال
وهم هنـا! صـرعى الميـول..الشـداد ... صرعى أمـانٍ كونـت مـن سـراب
للّه مـا أخـوى عقـول العبـاد! ... قد جاوزوا الأجر وخـاروا العقـاب
غفـرانك اللـهم إنـي أثيـم ... يـا رب إنـي غـارق في الـذنوب!
يـا رب أهـل يرجـى ليـوم عظـيم ... عبـدٌ قصـارى همـه أن يتـوب؟!
رحمـاك رب العـرش قلـبي كسـير ... متجـه- مـا زال حيًـا- إليـك
وأن يمـت قلـبي! فروحـي الأسـير ... متكـل، يـا رب، دومـا عليـك!

إن الشاعر يسترخص الحياة، ويحط من قيمتها، فهو مؤمن يقينًا أنها لا بد فانية، فيعجب ممن يعملون لأجلها، ويهيمون فيها لأنها وهم باطل وسراب زائل فيقول[1]:

حيـاة كـل مـا فيهـا ... أباطيـل وأوهـام
وظـل زائـل ورؤى ... وآلام وأحـلام
تمـر بهـا سـويعات ... وأعـوام وأيـام
ونحـن هنـا تقلبنـا ... علـى الأكفـان، أسـقام
نفـارق هـذه الـدنيا ... وفي الأرواح آلام!!
فواعجبـا مـن النـاس!! ... لمـاذا في الـدنى هـاموا؟

يخاطب نفسه ويلومها، لأنها مصدر متاعبه وشقائه، فالنفس جسم نوراني غير مرئي، ولكنه يعرف من خلال الألم والأسى، فينظر إلى كيان الإنسان نظرة فلسفية عميقة ويقسمه إلى نفس، وقلب، وجسم وشعور يسود بينها تفاعلٌ قوي، ويتوجه لكل واحد بالملامة والعتاب، فيقول[2]:

[1] الرحيل، حياة، ص69.

[2] الرحيل، إلام أتألم، ص111.

آه نفســـــي إلى متـــــى أتـــــألم وإلام العـــذاب بـــي يـــتحكم؟
أنت يا نفس منبع لشقائي أنـت كـل الـبلاء فيـك تجسـم
أنـا جسـمي لا شـك عبـد لعقلـي أنـا عقلـي عبـدٌ لقلـبي المتـيّم
أنـا قلـبي عبـد الشـعور وهـذا عبـد نفســي– وكلنـا يتـألم
نفســي مــالي أذوب فيــك شــقاء نفسي! مالي مما أؤمـل أحـرم؟
نفســي مــا للحيــاة تبــدو كليــل إن بـدا النـور دياجيـه أظلـم؟

التشاؤم والكآبة:

كثيرًا ما تضع هموم الحياة ومشاكلها الإنسان تحت ضغوط شديدة، يمكن التغلب عليها، لكن هذه الضغوط تصيب الإنسان، حينما يحاول بلوغ أهدافه وتحقيق مراميه، وخاصة حين يخفق، أو يتأثر ببيئة يعتريها عدم الاستقرار والانضباط.

فحالات الاكتئاب ليست واحدة، بل تأخذ أحيانًا شكل اضطرابات نفسية وأحيانًا أخرى تؤدي إلى هزيمة وخيبة أمل سيما عندما يصاب الإنسان بالعجز وقلة الحيلة.

ونلاحظ من الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع أن حالات الاكتئاب وخيبة الأمل تحدث حينما يصل الإنسان إلى طريق مسدود ولم يتمكن من بلوغ غاياته، ويتسبب في إحداث مشاكل جديدة من شأنها أن تهز كيان الإنسان وشخصيته.

كان مطلق عبد الخالق الشاعر الرومانسي الوحيد في فلسطين قبل ظهور فدوى طوقان، وقد تأثر عميقا بشعراء المهجر في أمريكا الشمالية، فاختلف عن بقية شعراء بلاده بنظرته المتشائمة الخاصة، وكتب شعرًا مليئًا بالكآبة والرغبة في الفناء[1]:

أوثـر المـوت إثـرة لا تـجـارى وأرى فـي الحـيـاة داء وبيـلا

[1] الرحيل، صور مضطربة، ص 41.

وفي قصيدة "يا أخي" يصف الموت بأنه "غادته الغيداء"، وتبلغ نظرته التشاؤمية ذروتها في قوله[1]:

بني البشر دنياكم جيفة وليس على أرضكم ما يسر

ويصور في شعره الذي جمع بعد وفاته أعماقًا روحية فلسفية لم يبلغها الشعر الفلسطيني قبله. ويبدي إدراكًا مرهفًا وفهمًا عميقًا لمشكلة الوجود. خذ على سبيل المثال[2]:

نحب ونكره في لحظة ونشقى ونسعد في ثانية

أصيب الشاعر مطلق عبد الخالق باليأس والقنوط إلى حد التشاؤم من سياسة زعماء العرب الهوجاء التي تفتقر إلى التخطيط والتفكير من الإنقسام الشديد الذي ساد الساحة العربية آنذاك، والبون الشاسع بين مواقف الزعامة العربية والفلسطينية وبين رغبة الشعب في تحرير أنفسهم وأرضهم من ربقة الاستعمار. ففي قصيدة "مذكرة" يخاطب مطلق الزعامات التقليدية المتآمرة على مصالح الشعب الفلسطيني فيقول بصوت ملؤه الغضب[3]:

قدمتم قبل أيام – مذكرة إلى الحكومة، يا قوم "الزعامات"
يا ليت أنا عرفنا ما يطرزها من المعاني، ومن سامي العبارات
وليتنا ما جهلناها وما جمعت من الحلول..لإبعاد الظلامات
رويدكم، لا تلوموا، أننا بشر من التراب، وأنتم في السماوات
مذكرات، كثار العد قد سبقت هذي فراحت شظايا كالقصاصات
يا سادتي، قد قضيتم في كتابتها شهرًا فأمهلتم شهرًا، وساعات
ماذا جنيتم سوى اعراض أمتكم عنكم، وغير شماتات الحكومات؟

[1] الرحيل، هوان الحياة، ص 177.

[2] الرحيل، الطلاسم، ص 22.

[3] الرحيل، مذكرة، ص 60.

استطاع مطلق عبد الخالق كذلك أن يدخل عنصر التهكم المفعم بغضب خفي ليعبر عن شديد سخطه للقيادات العربية والفلسطينية، هؤلاء كانوا زعماء البلاد المتشاجرين والمتنافرين على أنفسهم الذين رجاهم مطلق عبد الخالق بلهجته التهكمية المريرة أن "يستريحوا كي لا تطير" بقية الوطن، فهذه المرارة الداخلية والسخط والغضب أدى إلى بعض الاضطرابات النفسية انعكست في سلوكه اليومي في السنين الأخيرة من حياته.

وهذه الصورة القاتمة والمتشائمة نجدها في الكتابات الشعرية العربية في الثلاثينات من القرن الماضي. نجدها عند مطلق عبد الخالق حيث ولدت صورة جديدة عند الشاعر، هذه الصورة الرومانتيكية هي صورة الإنسان الحزين، الإنسان الذي لا يستطيع أن يصل إلى تصالح مع عصره أو مع زمنه، هي صورة الإنسان الذي يخرج إلى الخلاء لكي يناجي نفسه أو يتأملها، وهي صورة الإنسان العاكف على نفسه يريد أن يفهم أسرارها.

عاش مطلق عبد الخالق في جو اكتنفته تأملات مضطربة وأكثر التفكير في الدنيا وماهيتها وما فيها من اضطرابات واكتئاب وسوداوية وعذاب، فهو لا يرجو كثيرًا من هذه الدنيا الفانية، بل يظل حائر الفكر متأملا حال وطنه التي توالت عليه النكبات[1]:

ألـــــق الـــــدنيا حبـــــاب وأمانيهـــــا ســـــراب
كلمـــــا فكـــــرت في الدنـــــ يـــــا تـــــولاني اضـــــطراب
ويلـــــتي! في الـــــنفس أشـــــيا ء وفي القلـــــب حـــــراب
أكـــــتم الســـــر وفي الكـــــ تمـــــان بـــــرح وعـــــذاب
وإذا مـــــا بحـــــت بالـــــ ســـــر تـــــلا البـــــوح احتســـــاب
ليـــت شـــعري! مـــا علـــى الجـــ و؟ علـــى الجـــو ســـحاب!
ظلمـــــات حالكـــــات وركـــــوم وشـــــعاب
تبـــــزغ الشـــــمس وشـــــيكا فيواريهـــــا ضـــــباب

[1] الرحيل، تاملات مضطربة، ص 26.

سـخريات أمرهـا في هـذه الـدنيا عجـاب

وفي قلبه أسىً ولوعة على شبابه وما اعتراه من خوف النسيان يحزّ في النفس. يقول[1]:

ليـت شـعري! عفـت الـذ كـرى، وآمـال عـذاب
وعفا ما كان يعتـ ز بـه هـذا الشـباب
وانطـوت صـفحة أيـا مـي، وعهـد مسـتطاب

ونهض الشاعر مطلق متلهفا متألما على هذا الوطن الذي اختلف حوله الزعماء، والأحزاب، فتفرقت الكلمة واضمحلت القيم وتدنت الأخلاق، وكرس الزعماء جهودهم لمطامعهم ومصالحهم وإشباع نزواتهم، وانغمسوا بملذاتهم وتركوا شعبهم يغرق في الويلات والدماء، وهذا ما آثار غضب الشاعر وزاد من اكتئابه وعمق إحساسه بأن عليه العمل من أجل صدّ هذه الزعامة، فقلق واضطرب وتشاءم من هؤلاء الناس الذين جلّ همهم المحافظة على مناصبهم، غير مكترثين بالوطن والشعب، فيقول[2]:

لهفـي علـى وطـن تنـازع أهلـه عبث الـرؤوس وضـيعة الأذنـاب
الضغن والشحناء بعض خطوبه ومصـارع الأخـلاق والآداب
وتبلبـل الـرأي الشـتيت وعـزةٌ مـوؤدة وتنـاحر الأحـزاب
وتواكـل في الحادثـات وذلـة وفتـور أشـياخ ونـوم شـباب
وتزلـف– أو مـا رأيـت سـراتنا هامـاتهم تمشـي علـى الأعتـاب
الشعب في دمه يخـوض وخوضـهم –يـا ويحهـم– في الشـاي
وعـزائم مفلولـةٌ، ومشـاكلٌ تغـني شـواهدها عـن الإسـهاب

ثم يتابع قائلاً[3]:

---

[1] الرحيل، تاملات مضطربة، ص 28.

[2] [2]الرحيل، يوم الهوان، ص50.

[3]الرحيل، يوم الهوان، ص49.

عشرون عامًا قد مضين ولم تكن يا يوم إلا ريبة المرتاب
أو لست ذا وجهين: وجهٌ باسمٌ لهم.. ووجهٌ بارز الأنياب
دخلوا بلادك فاتحين، فصنتهم وأذقتنا، يا يوم، مر عذابي
ما أشأم الدنيا وذكرك حافلٌ بفواجع الأشلاء والأسلاب

ضحى الشاعر مطلق عبد الخالق بقلمه وفكره وحياته بهدف بلوغ أمته جميع أمانيها التي كان يعمل على تحقيقها، ولكنه رحل دون تحقيق هذه الأمنية[1]:

متى ألقاك يا وطني؟ وهلا ينتهي عمري؟
متى؟ قد طال منتظري متى؟ قد عيل مصطبري
أنا في هذه الدنيا غريب غريب الدار.. والوطر!

وعمل الكثير من أجل أمته رغم كونه حزيناً على شعبه المتخاذل، ومتشائمًا من المواقف السياسية للزعماء العرب الذين لم يرجَ منهم خيرًا، فكثير منهم كانوا يضحون بكرامتهم وعزتهم مقابل نيل وظيفة وهذا الوضع كان سببًا مباشرًا في يأس الشاعر مطلق عبد الخالق وتشاؤمه من تحقيق أهداف الوطن[2]:

أيام كان المجد مرتفع الذرى وعلى جبين الدهر منه سهام
أيام كنا أمة عربية تسعى إلى العلياء ليس تنام

ثم يقول[3]:

وبنو قومي إذا جاهدت في وطني كانوا هم في شغل

---

[1] الرحيل، إليك يا وطني، ص 158.

[2] الرحيل، عمر العظيم، ص 107.

[3] الرحيل، حياتي، ص 93.

يعبر الشاعر أيضا في هذه القصيدة "يوم الهوان" عن نوازع الكراهية والبغضاء للمستعمرين الطغاة الذين اغتصبوا الأرض، وشردوا الشعب وأهانوا الإنسان، ويضيف إلى أن المعركة بين المستعمر والشعب الفلسطيني لم تنتهِ بعد ما ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، فهذا الصراع يزيد من تشاؤم الشاعر لأنه غير واثق من مواقف القيادة، فيقول[1]:

يا من فتحت القدس مهلا ما انتهت ... ما زال في الميدان بعض صعاب
ما زال بينكم- اللنبي- وبيننا ... في هذه الدنيا رصيد حساب
هذي عناصر كرهنا موروثة ... لكم ونورثها إلى الأعقاب
لا تسألوا تبياننا أسبابها ... أنا ورثناها عن الأحقاب
الدهر دولاب يدور.. وأنتم ... معنا تدورون مع الدولاب

فالمستعمر دخل البلاد فاتحاً، وأذاق أهلها كل ألوان الذل والهوان فترك ذلك الوضع غصة في قلب الشاعر المطلق عبد الخالق[2]:

دخلوا بلادك فاتحين فصنتهم ... وأذقتنا، يا يوم، مر عذاب
ما أشأم الدنيا وذكرك حافل ... بفواجع الأشلاء والأسلاب
لهفي على الوطن العزيز يذله ... وعد العدو وهزة القرضاب
ينبيك كاذب وعده عن ختله ! ... يا للعدو ووعده الكذاب
فتح البلاد وقال: "أنتم أهلها ... يا صفوف الأحلاف والأحباب

غنى مطلق بشعره وتمنى الموت فنال بذلك بغيته وهو لا يزال في ريعان شبابه، وكان متشائمًا يمقت الحياة ويعفها[3]:

---

[1] الرحيل، يوم الهوان، ص51.

[2] الرحيل، يوم الهوان، ص49.

[3] الرحيل، على فراش الموت، ص52.

وفارقت دنيا، كم تمنيت بعدها وللموت مني لهفةٌ وحنين

ثم يقول في قصيدةٍ أخرى معبرًا عن نفس الغاية[1]:

وأنتِ "يا دنياي" دنيا الشجون يا جيفة طلابها كالكلاب

ويواصل تعبيره عن هذا المعنى[2]:

بني الإنسان دنياكم جيفة وليس على أرضكم ما يسر
رقادك يا سيدي واسترح فقبرك في ضيقه كالإبر

ويصل التشاؤم به حدًا أصبح يتخيل الموت ويتخيل فيه نقالة الموتى التي ستأخذه إلى القبر ليستقر هناك تحت التراب، وأخذ يتوهم هذه الآلة الحدباء وما تحمله من أجساد فيقول[3]:

نقالة الموتى وما نقلت في الليل- همّ بات يقلقني
تبدو لعيني وهي مجفلةٌ! فكأنها كانت تباغتني!
دنيا - لحاها الله - حافلة بالشر والبأساء والألم
أنصت إلى الأجداث صارخة يا ليتنا في عالم العدم

ويضيف في قصيدة أخرى معبرًا عن مصير الإنسان في هذه الحياة العديمة القيمة[4]:

تموت الحياة ويفنى العمر ونحن إلى الموت نمضي زمر
ونرقد في حفرة مالها قرار.. ونغدو بها كالحفر
ونضحي غذاء لدود الثرى وسخرية للقضا والقدر
ويتلو المشيب جمال الصبا ويلحق بالأولين الأخر

---

[1] الرحيل، دنياي، ص62.

[2] الرحيل، هوان الحياة، ص 177.

[3] الرحيل، نقالة الموتى، ص88.

[4] الرحيل، هوان الحياة، ص175.

وهنالك قصائد كثيرة خصصها الشاعر ليصور من خلالها حالة الاكتئاب التي خيمت عليه سنين طويلة، فيقول[1] :

أوثـــر المـــوت إثـــرة لا تجـــارى وأرى في الحيـــــاة داءً وبـــــيلا
أطلب الموت وهو ينفر مني يا لتعسي هل أطلب المستحيلا
هـم يحسـبونني مجنونًـا بـه شـدة ولست إلا طـراز الشـاعر العـالي
أرى بعين خيال الشعر مـن طـرف ما لا يـرى عابـد الـدينار والمـال

عاش طيلة حياته يغمره جو من التشاؤم والحزن، فلم يرضَ بهذه الحياة السخيفة الزائلة واعتبر العيش فيها حديث خرافة يتناقله الناس، فلم يدر لماذا هذا التهافت على هذه الحياة وما فيها من مال وذهب وفضة، طالما أن مآلها إلى الزوال والفناء.آمن مطلق عبد الخالق أن من يسعى وراء ماديات الحياة، إنما يقضي حياته في ذل وهوان بل في خداع وسراب، ويحزن على الشعب الذي لم يفقه حقيقة هذه الحياة، فيقول[2]:

والناس لـو علمـوا الحقيقـة أدركـوا يـا مـال إنـك سـاحر كـذاب
فتـرفـقـًـا أعـمـاركـم مـوقـوتـة وتعففـًـا هـذي الحيـاة سـراب
والعيش في نظـري حـديث خرافـة ولأنت "حلـوى" والأنـام ذبـاب
يـا مـالُ أنـت أخّـس شـيء منـزلا عندي، وأنـت كمـا أراك تـراب
أنـا للعـلا أرنـو فمـالي مطمـع فيـك، ومالـك في حمـاي ركـاب

يبدو أنّ الشاعر مطلق عبد الخالق يميل إلى الزهد عن ملذات الحياة ومتعها، فيترفع عنها ويرنو إلى الأعالي والمعالي، يطمع في رضى الله والتقرب منه.

[1] الرحيل، صور مضطربة، ص41.

[2] الرحيل، يا مال، ص19.

كانت حياته مليئة بالاضطراب وعدم الاستقرار النفسي، وحيثما اتجه وولى وجهه يصطدم بواقع مّرٍ وقاسٍ، مما يسبب له اكتئابًا وعذابًا وشؤمًا[1] :

ذي حيـــــاتي...في أمـــــاني وفي نزعـــــاتي...وغرامـــــي الأول
ذي حياتي عالم مضطرب كيفمـا درت أقـع في مشـكل!!
مـــا حيـــاتي؟ تعـــب في ملـــل وهيـــام في قفـــار الأمـــل

ويقول[2] :

هيـــات! مـــا في الحيـــاة مغتـــبط وكـــل مـــا في الحيـــاة في تعـــب

تشاؤمه وعدم اغتباطه بهذه الحياة القصيرة التي جل ما فيها وهم باطل، وظل زائل، سبّب له اضطرابًا وقلة هدوء مع نفسه، بل رأى الحياة بمنظار أسود، وعافها وتمنى الرحيل لملاقاة ربه، يقول[3] :

حياة كل ما فيها أباطيل وأوهام
وظلٌ زائل ورؤى وأحلام
تمر بها سويعات وأعوام وأيام
ونحن هنا تقلبنا على أسقام
نفارق هذه الدنيا وفي الأرواح آلام
فوا عجبا من الناس!! لماذا في الدنى هاموا؟

يعود التشاؤم الذي يسري في مزاجه، إلى همومه الذاتية، الهموم المرتبطة بالبحث عن تخليص أخيه من السجن من جهة، وبصراعاته في مجابهة السلطة ومقارعة الإضراب. من جهة أخرى، وهذه النغمة التشاؤمية شحنت بأجواء قانطة وأحيانا سوداء.كما أن الكثير من عناوين قصائده

[1] الرحيل، حياتي، ص94.
[2] الرحيل، تأملات مبهمة، ص 85.
[3] الرحيل، حياة، ص69.

تعكس هذا الجو الحزين: "على شاطئ الحياة"، "إلام أتالم"، "حياتي"، "تأملات مبهمة"، "يا أخي"، "حياة قلب"، "دنياي"، "على فراش المرض"، "نقالة الموتى"، "حياة البغي"، "هوان الحياة"، "يا مال"، و"يوم الهوان".

إن جو التشاؤم طاغٍ على شعر مطلق عبد الخالق، وحتى في بعض قصائد الغزل، كما نجد مثل هذا التشاؤم في قصيده"إلى روح جلالةّ الملك عليّ[1]:

يا حبيبي المـوت زرنـي إن روحـي عافـت الأرض وتاقـت للأعـالي

ويقول في قصيدة أخرى معبرًا عن تشاؤمه[2]:

وصل الشاعر شطآن الوجود فتحير
إذ رأى البحر تغشاه الخمود وتعكر
سكن البحر فهل يحلو القعود وتفكر
ونوى الخوض وقد عاف الجمود فتذكر
رهبة الموت الزؤام

وفي قصيدته"حيرة" يقول الشاعر إن شعره لم يسعفه في تخفيف وطأة اليأس[3]:

ليلـــى أمـــانيّ ضـــاعت ومات في اليـأس حسـيّ
وذاب جسمي نحولا وغـاب في الهـم جرسـي
وبـــتّ بـــين الأناســـي كمـــن أصـــيب بمـــس
ورحـــت أنشـــر شـــعري وضّـــاء في غـــير لـــبس
فمـــا انتفعـــت بشـــعري ولا أفـــدت بدرســـي

[1] الرحيل، إلى روح جلالة الملك علي، ص139.

[2] الرحيل، على شاطىء الحياة، ص115.

[3] الرحيل، حيرة، ص 113.

وفي قصيده"إلام أتألم" يصف حيرته ومصدر تعاسته وشقائه وشدة ألمه، يقول[1]:

نفسي ما لي أذوب فيك شقاء نفسي ما لي مما أؤمل أحرم؟
نفسي ما للحياة تبدو كليل إن بدا النور في دياجيه أظلم
حائر النفس حيرة لست أدري ما دواها، ولست والله أعلم
أنت يا نفس منبع لشقائي آه نفسي إلى متى أتألم؟

وفي قصيدة "أنا أهواك يا ليلى"، التي تبدو غزلية، يطغى عنصر الألم والكآبة واليأس والقنوط، فيقول[2]:

وماذا تفعل الروح وقد أودى بها السقم؟
وضلت في دجى اليأس ولم يخلد لها رسم؟
وذاب الجسم في الهم ودق اللحم والعظم؟
وجنّ الليل يا ليلى وغاب البدر والنجم!

إنه من صنف البشر الذي لا يرى بالمال عنصرًا ذا أهمية، وهو يختلف مع من هم سواه في نظرته للحياة وفلسفتها، لأنه إنسان يسمو للعلا، ويفكر دائما باللامحسوس واللامرئي، ويراه الآخرون إنسانًا شاذًا إلى درجه الجنون في فكره وسلوكه، يقول[3]:

هم يحسبوني مجنونا به شدة ولست إلا طراز الشاعر العالي
أرى بعين خيال الشعر من طرف ما لا يرى عابد الدينار والمال

وهذا التفكير الدائم والمستمر بمبهمات الحياة وأسرارها، يسبب له قلقًا وتشاؤمًا من الحياة وممن يتكالبون عليها.نشأ مصدر التشاؤم لدى مطلق عبد الخالق من الظروف السياسية والاجتماعية التي

[1] الرحيل، إلام أتألم، ص111.
[2] الرحيل، أنا أهواك يا ليلى، ص104.
[3] الرحيل، بين اشباح الظلام، ص36.

عاصرها وخاصة إيداع أخيه في المعتقل بسبب مناهضته للمستعمر، أما فيما يتعلق بالشعب فإن التشاؤم ينعكس فيما يصفهم من غباء ويصف المجتمع بالجهل والحمق والتخاذل وقلة الوعي.

الاضطراب النفسي:

ولّد شعر مطلق عبد الخالق حقدًا في النفوس لمكافحة الظلم والظالمين والمنافقين والمستعمرين، بل حبب الناس بالموت والاستشهاد في سبيل الأمة والوطن، وهو نفسه استشهد في سبيلهما وهو يناضل ويجاهد لإنقاذ إخوانه الأحرار المعتقلين في معتقل المزرعة قرب عكا. كما انعكست آثار القضية الفلسطينية على شخصية الشاعر، فهو أصبح أيضًا حبيسًا وأسيرًا للواقع المر المؤلم الذي سبب له اضطرابات نفسية قاسية أثرت كلها على شخصيته الإنسانية سلبًا، فكان فردًا من أفراد المجتمع، إلا أن حساسيته المفرطة جعلته يقع في بركان ملتهب من التفكير المتواصل في ذاته وفي حاضره ومستقبله ومصيره المحتوم، مما أدى به أن يؤثر الموت، ويدعو الله أن يعجل في رحيله عن هذه الدنيا الفانية. وتطغى على كثير من شعره النزعة الصوفية والرجوع إلى الله وطلب المغفرة من الذنوب، فبعد أن اعتراه ألم شديد وحالة من الألم النفسي، لم يجد في الحياة ما يجدد له حياته أو يبعث روح الأمل فيها، فشعر بالضعف والهزة النفسية، فلجأ إلى الله مستعينا به[1]:

ربـــي، إلـــهَ العـــالم العجيـــب وخـــالق الإصـــباح والغـــروب
وغـــــافر الآثـــــام والـــــذنوب مـــاحي الكـــروب في الخطـــوب
ومحصـــــي الـــــذرة في الكثيـــــب ونســـمة في الغصـــن الرطيـــب
رحمـــاك يـــا الله، واغفـــر حـــوبي تعـــددت يـــا خـــالقي ذنـــوبي
وكثـــرت في هـــذي الـــدنى عيـــوبي واخـــــتلط المـــألوف بالغريـــب
يـــا رب أنـــت عـــالم الغيـــوب وخـــابر الأســـرار والقلـــوب
وأنت خير سامع مجيب

[1] الرحيل، على ربوة المناجاة، ص8.

يبدو الاضطراب واضحًا في شعره، فهو لا يدري كنه هذه الحياة والمتناقضات فيها، يقول[1]:

ونطلب الموت فإن يقترب ... نلاقيه بالأدمع القانية
ونسعى إلى المجد حتى إذا ... بلغناه.. نبغي ذرى الرابية!
ونمضي ويمضي بنا مسرعًا ... هوانا... متدرج في الهاوية
وتخدعنا بارقات الأماني ... وتجلبنا العيشة الهانية
طلاسم فيها يحار النهى ... طلاسم مرصودة خافية

ويعيش أحيانا في حالة اضطراب وهلوسة وفكر شارد تتجاذبه أوهام وأباطيل، فيقول[2]:

أنا خيال، أرى حالي بلا حال ... وفكرة ميتة بل خاطر بال
أرنو إليّ فلا ألفي سوى شبح ... محطم.. لفّ في أكفان أسمال
تنتابني حادثات الدهر عابثة ... بالقلب والفكر والحوباء والبال
وتعتريني صبابات وأخيلة ... وذكريات شبابي الغابر الخالي

يعتقد الشاعر مطلق بأنه يائس وحائر من تصرفات الناس وسخافاتهم، ويستصعب الحياة بين الناس الذين لا يفهمونه ولا يرتقون لمستوى وعيه وتفكيره[3]:

ومن سخافتهم أن انتحى نفقا ... موزع الفكر بين القيل والقال
هم يحسبوني مجنونا به شدة ... ولست إلا طراز الشاعر العالي
أرى بعين خيال الشعر من طرف ... ما لا يرى عابد الدينار والمال
وما جنوني إلا أنني "بشر" ... أسير بين قذارات وأوحال

[1] الرحيل، طلاسم، ص33.
[2] الرحيل، بين أشباح الظلام، ص35.
[3] الرحيل، بين أشباح الظلام، ص 35.

تعتري الشاعر مطلق حالات من عدم الاستقرار، فيرى أشباحًا في الليل فيأخذ يتخيل ويفكر، مما يتعبه ويزيد من ضيقه فيرى الشياطين تلوح أمام ناظريه، فيقول[1]:

أرى بعـــيني أشـــباحًا مجنحـــة ... في الليـل أجنحـة تبـدو كأذيـال
أرنو إليها فلا ألفي لها أثرًا ... فـــأطمئن إلى ليلـــي وأوجـــالي
حتى إذا حلقت.. في الجو أخيلتي ... وعانقـت في دنـى الآبـاد آزالـي
رأيت أشباح ليلي قـد بـدت صـورا ... من العفاريـت..في آلاف أشـكال
ونمـــلأ الجـــو إعـــوالا وزمجـــرة ... كأنهـــا زأرة في شـــدق رئبـــال!
أشباح ليلي كفـى! روحـي معذبـة ... وقـد تبينـت أقـوالي وأعمـالي

أحس الشاعر بانكسار القلب وموت الروح وأسرها، أحس بالضعف، ضعف النفس والروح، واهتزازه واضطرابه واتكاله على الله عسى أن يخرجه من هذا المأزق[2]:

رحمـاك رب العـرش قلـبي كسـير ... متجـه – مـا زال حيـا – إليـك
وإن يمـت قلـبي! فروحـي الأسـير ... متكـل، يـا رب، دومًـا عليـك

عاش عمره معرضًا عن ماديات الحياة مقطب الجبين، عابسًا، واعترته حالة نفسية خبيثة عانى منها وأنهكت قواه[3]:

وأنـا كـذاك أرى الحيـاة حقـيرة ... فجزيتهـا الإعـراض والتقطيبـا!
لكنني أشكوك نفسي، إنها ... خبثـت وكـان مـني النفـوس

يئس الشاعر من الحياة، ويراها قبرًا مظلمًا يرقد تحته، ويولد ذلك إحساسًا بالبؤس والاضطراب،

---

[1] ألرحيل، بين أشباح الظلام، ص 36

[2] الرحيل، دنياي، ص62.

[3] الرحيل، نزوات قلب، ص64.

وقلة الأمل، فتخيب نفسه وتحبط مساعيه، فيقنط ويدب اليأس في أوصاله[1]:

مجـــال هـــذه الـــدنيا.. مقـــبرة راقـدة تحـت سبسـب خـرب!
تطوي رفات الوجود عابثة بالنـاس طـي السـجل بالكتـب!

تضطرب النفس مما تراه وتسمعه في هذه الحياة وفي المستقبل، ليس فيها ما يسر أو يبهج، بل ما يبعث على القنوط واليأس وقسوة النفس، فتدور في خلد الشاعر تأملات مبهمة لا يعي حقيقتها[2]:

تـــأملات... تـــدور في خلـــدي مخبـوءة في السـطور والحجـب!
أفتح عيني فلا أرى أحدًا ما في حياة الـورى سـوى نصـب

فالحياة الاجتماعية والسياسية أتعبت الشعب الفلسطيني في مقاومته للمستعمر، وأيقظت ضمير الناس مما يشاهدونه من زيف وزور وتشويه للواقع والحقيقة، فالوطن مهدد بالضياع، والأمة مقضي عليها بالبغضاء، وفي ذات الوقت يستفحل نفوذ المستعمر الإنجليزي وتزداد موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين بلا معارض.

وهذه الظروف كانت سببًا مباشرًا في الأزمة النفسية التي عانى منها الشاعر مطلق، والاضطراب النفسي الذي اعتراه وانعكس على حياته في سلوكه وتصرفاته ومعاملاته، وأحس أنه لا يقدر على إحداث تغيير لا في عقلية الزعامة العربية والفلسطينية، ولا يستطيع وقف الهجرة أو صدّ المستعمر البريطاني، فحالة اليأس والإحباط استحوذا عليه وسببا له اضطرابًا نفسيًا شديدًا.

المرض

كثيرًا ما كان مطلق عبد الخالق يردد أن القضاء القاسي سوف يحول بينه وبين آماله ومحبيه ويبعده عنهم طويلاً، وكان ذلك نتيجة أمراض بسيطة كانت تنتابه أحيانا. كان يشكو المرض في

[1] الرحيل، تأملات مبهمة، ص 84.

[2] الرحيل، تأملات مبهمة، ص85.

العديد من المناسبات، وكثيرًا ما كان يعتذر عن القيام بالواجب إثر مرض الَمّ به، فها هو يعتذر "لإبراهيم"، صاحب جريدة "الدفاع"، عن عدم تمكنه من زيارته في المنفى، حيث يقول[1]:

أنـا "إبـراهـيـم" لولا علتـي كنت في صرفنـد ما كنت هنا

عاش الشاعر مطلق عبد الخالق، وسط تأملات مبهمة وتأوهات ضاغطة، فيرى أن الحياة كلها تعب ونصب واضطراب، تضغط عليه من كل جانب، ويصور الحياة بأنها قصيرة راقدة تحت أسباب خربة، لا حب فيها يشفع، كلها ضياع وخيبة أمل، ويشعر في الحيرة والاضطراب في حالات الرخاء وحالات البؤس والألم. ولذلك فإنه يؤثر الموت على الحياة، لأنها بالنسبة له راحة من كل ضيق، فهذه الحالة النفسية التي رافقته طيلة حياته سببت له المرض القاسي والآلام الموجعة، يقول[2]:

تـــأملات... تـــدور في خلـــدي مخبـوءة في السـطور والحجـب!
أفتح عيني فلا أرى أحدًا ما في حياة الـورى سـوى نصـب
هيهـــات! مـــا في الحيـــاة مغتـــبط وكـــل مـــن في الحيـــاة في تعـــب

ثم يضيف قائلاً[3]:

تـــأملاتي... تمـــوج في عجـــب للّه! كـم في الحيـاة مـن عجـب
أعجب ما في الحياة مضطرب يختال في الكـون غـير مضـطرب
لا يصـــلح الـــدهر مـــن مفاســـده إلا ليســـــــلمه إلى العطـــــب

يصور الشاعر حاله وهو على فراش المرض، يقاسي الآلام الشديدة ويقاوم المرض الذي هاجم جسمه من كل ناحية، فأرهقه وأتعبه حتى أصبح يري الموت يقترب من فراشه[4]:

---

[1] الرحيل، تحية صاحب "الدفاع" في منفاه، ص149.

[2] الرحيل، تأملات مبهمة، ص84.

[3] الرحيل، تأملات مبهمة، ص84.

[4] الرحيل، على فراش المرض، ص52.

أرى الموت يدنو من فراشي فأنثني أفكر في ماذا عساه يكون

وتجول في نفسه خواطر كثيرة وهواجس عديدة، وهو على فراش الألم والمرض، يخاف أن يخطفه الموت قبل أن يحقق آماله وغاياته الكثيرة، ويؤدي رسالته نحو أبناء شعبه في تحرير الإنسان والأرض ومقاومة المحتل المستعمر، يقول[1]:

أموت، وفي أرضي علي رسالة إذا خفيت يومًا، فسوف تبين
أموت، وفي صدري أمانِ دفينة إذا انطلقت تسعى، بهيج دفين
أموت، وفي قلبي ميول غريبة تدل عليها لوعة وأنين
أموت، وفي نفسي عيوب كثيرة أحاول تطهيرًا لها، فتشين
أموت، وما لي في حياتي تعلة ولا فكرة أحيا لها وأدين

يخاطب الشاعر الموت ويرجوه أن يتمهل في قبض روحه، وألا يسارع في استغلال ضعفه وقلة حيلته، يقول[2]:

ألا أيها الموت الذي أنت وافد أشك أرى أم ما أراه يقين
ألا أيها الموت الذي أنت ساخر بضعفي تأخر! في الفؤاد شؤون
وما كنت أخشى الموت لولا صحيفة لو انقلبت بيضاء ساد سكون
وفارقت دنيا! كم تمنيت بعدها وللموت مني لهفة وحنين

قضى الشاعر زمنًا طويلاً راقدًا في فراش الألم، يتألم ويتوق إلى الحياة الأخرى الأبدية، لقد ألف وتعود على هذا الفراش، لكنه يخشى أن يأتيه الموت بغتة[3]:

أليف فراش السقم، صبرًا، فهذه حياتك طيف يختفي ويبين
فغيرك، بين الناس، مرضى هباء، وموت في النفوس وهون

---

[1] ن.م، ص53.

[2] الرحيل، على فراش المرض، ص52.

[3] الرحيل، على فراش المرض.

يصف الشاعر دنو الموت منه على هيئة أشباح وأطياف، فيثير لديه الدهشة والاستغراب لحقيقتها، لأنه لم يعلم كنهها وطبيعتها، فينتابه ضرب من الذهول، يقول[1]:

يلوح أمـام العـين أشـباح حاضـري ... طيوفًـــا لمـــاضٍ لا أراه يـــزين
فأسأل نفسي ما أراه حقيقة ... تـــروعني؟ أم مـــا أراه ظنـــون؟
ويصـــرع داء الجســـم داء أخفـــه ... سهوم... وإحدى راحتيه جنون
فأذهل عما بي من السـقم والضـنى ... وتغمـر نفسـي حـيرة... وركـون
وأعجـــــب داء فيّ، داء قليلـــــه ... يزيـد... وأمـا صـعبه فيهـون

كانت تلوح أمام ناظريه دائمًا أوهام الموت، فكان يتخيل نقالة الموت التي ستنقله يومًا ما إلى القبر، يقول[2]:

نقالـــةُ المـــوتى ومـــا نقلـــت ... في الليـل – هـمّ بـت أحملـهُ
مرت أمامي وهي ناقله ... شـيئا...أنـا مـا كنـت أجهلـه

كان يرى المشيعين وهم يحملون نقالة الموتى التي تحمل الشهداء، فيقول[3]:

أبصـرت فيهـا – آه وا لهفـي– ... شـــهداءنا مـــوتى بـــلا كفـــن
فاحترت دمعي كيف أسفكه ... فشـرقت في دمعـي وفي شـجني
غربـــاء لا أهـــل ولا ولـــد ... وأواصـــر التشـــريد تجمعهـــم
نقالـــة المـــوتى تطـــير بهـــم ... نحـــو قبـــور أمرهـــا عجـــب
يـا بـدر، فاشـهد سـر دفـنهم ... وتساقطي، من فوق، يـا شـهب

[1] ن.م، ص52.

[2] الرحيل، نقالة الموتى، ص86.

[3] الرحيل، نقالة الموتى، ص86–87.

بيئة الشاعر الاجتماعية

الخلفية الاجتماعية

حفل الشعر الاجتماعي في فلسطين بتناول قضايا المجتمع وهمومه، ولكن مشاركة الشعراء لم تكن على قدم المساواة، فنجد مثلاً الشاعر مطلق عبد الخالق يهتم كثيرًا في المجتمع الفلسطيني، من حيث تهافت الناس على كسب المال ومعاناة العامل الذي يكدح طيلة النهار في سبيل قوت أولاده، وتمزق شرائح المجتمع وعدم الوحدة بينها، فحالهم يرثى له، ويستصرخ الجميع لمساندته ودعمه. ومع تجدد جوانب الثقافة لمسنا اهتمام إبراهيم طوقان، وأبي سلمى وعبد الرحيم محمود، ومطلق عبد الخالق بقضايا المجتمع، فقد تطرق هؤلاء إلى الإشارة بالطبقات الكادحة والدعوة إلى الرأفة والعطف على الفقراء والأيتام، كما نقدوا أدران المجتمع وحملوا على الجواسيس والخونة وبائعي الأراضي، داعين إلى التمسك بتراب الوطن. كما اشتمل الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني على دعوات للوحدة الوطنية ونبذ الفرقة، والتعصب الديني ومواجهة الغزو الصهيوني. وما يميز الشعر الاجتماعي في قصائدهم هو ميلهم إلى المباشرة والخطابية التي ارتقت لاحقًا إلى استخدام الأسلوب القصصي والرمزي. وما يميزه أيضًا هو السهولة والوضوح واستثارة العواطف والبعد عن المبالغة.

يصور لنا الشاعر مطلق عبد الخالق في قصيدة "العامل" (الرحيل، ص 185)، ما يرزح تحته هذا الإنسان من شقاء وبؤس، وهو يكافح من أجل أبنائه، ولكنه لا يستطيع أن يوفر لهم ما يبعث الفرح والمرح في حياتهم. إن هذا العامل يقضي ليله مهمومًا وحوله صبية جائعون، عيونهم غائرة، ووجوههم شاحبة وأجسامهم ناحلة، وعقله شارد، ولكن في أعماقه نارًا تتلظى، وبين عيونه يسيل الدمع على حالة البؤس[1]:

بؤســاء الــدهر يــا قــوم العبيــد يا ضحايا الجوع والموت الـزؤام
استعدوا، حاربوا الخصم العنيد وأشـعلوا في القلـب نـار الانتقـام

[1] عليان، محمد شحادة، الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، 1987. ص. 48–49.

واهـدموا في عصـرنا، كـل قـديم وارفعوا عن ظهركم نـير العـذاب
أضـرم الـنيران مـا دام الحديـد حاميًا... وأضرمه من غير مـلال
تحيـا حـرًا! مطلـق الـروح. سـعيد وتزيل الـنير عـن ظهـر الرجـال

ثم يصف حال العامل فيقول[1]:

شـارد اللـب والفكـر خاشـع القلـب والبصـر
في حناياه شعلة تتلظـى.. ولا تقـر
في مآقيـه دمعـة كالشـآبيب تنهمـر
في ثنيـات صـدره زفـرة الهـم والكـدر
هـو للبـؤس صـورة ومن شجون الأسى صور

ويقدم لنا الشاعر مطلق صورة تفيض باللوعة، وتنتزع العطف على أطفال تجمعوا حول هذا العامل، وهم في حالة يرثى لها، وجوه شاحبة، وأجسام هدّها الهزال أو الجوع، فهي كعود بلا ثمر أذبل الريح قشره، مصيره الاندثار، يقول[2]:

يـا لـو سـنان ليلـه باهـت الـنجم والقمـر
لا يرى في غضونه غـير مـا يبعـث الفجـر
وحواليـه صِـبية جـوّعٌ زائغـو البصـر
بوجـوه شـواحب وعيـون بـلا نظـر
وجسـوم نواحـل لا وقـاء ولا وزر
عرضـة القـر والوبـا ء، كعـود بـلا ثمـر
تـذبل الـريح قشـره فيبيـد... وينـدثر!
كلمـا مـال نحـوهم قـدحت عينـه شـرر

[1] الرحيل، العامل، ص163.

[2] الرحيل، العامل، ص163.

والصورة التي قدمها لنا الشاعر، تعطينا فكرة عن أحوال العمال، وما كانوا يعانونه، في ظل الانتداب، حيث لا حق بهم، فالعامل يكدح طول نهاره، ولكنه لا يفي بمتطلبات الحياة لأسرته، فيمتلئ قلبه بالأسى، ويسأل نفسه لماذا أعاني وغيري ينعم بالقصور، فيقول[1]:

واعـترى قلبـه الأسـى واحتـوى نفسـه الحصـر
وعـلـتـه كـآبـه مـرة الخـبر والخـبر
هـذه الـدور والقصـو ر لمـن؟ ولم لا تخـر؟
لمَ مـا لـي نظيرهـا لمَ اسـعى فأنـدحر

حفل الشعر الفلسطيني بألوان كثيرة من صور الطبقات الكادحة، والطوائف الكادحة والطفولة البائسة. فقد تناول ما يعانيه الفلاحون من حرمان، وما يقاسيه العمال من شقاء، وما يلاقيه الأطفال والأيتام من ضياع وبؤس وعذاب[2].

الخلفية الأدبية والثقافية

كانت فلسطين منذ العهد العثماني جزءًا من المنطقة التي يطلق عليها اسم الشام، والتي تضم سوريا ولبنان وشرق الأردن وإسرائيل وفلسطين. ولم تظهر الحدود الإقليمية لفلسطين إلا سنة 1916، عندما عقد اتفاق (سايكس بيكو) لتقسيم البلاد العربية بين إنجلترا وفرنسا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. ولقد عانى هذا القطر العربي الإسلامي – ولا يزال – صراعًا مريرًا بين العرب أصحاب الأرض الحقيقيين والمغتصبين في شتى مراحل التاريخ.

يصور الأستاذ كامل السوافيري[3] المأساة في كتابه "الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين" فيقول: هزت مأساة فلسطين ضمير الأمة العربية أعنف هزة عرفتها في تاريخها الحديث، وأشعلت عواطف شعرائها، وفجرت في قلوبهم ينابيع الشعر.

---

[1] ن.م، ص164.

[2] خالد علي مصطفى، الشعر الفلسطيني الحديث، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978، ص 40.

[3] كامل السوافيري، الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين، ص59.

قبل كارثة 1948 م كان الأدب العربي في فلسطين يشكل رافدًا له قيمته في ذلك التيار الذي شغل النصف الأول من القرن الماضي، متخذًا من القاهرة بالذات مركزًا لإنطلاقه، متأثرًا بالأقلام المصرية واللبنانية والسورية التي كانت في ذلك الحين رائدة ثورية لمرحلة جديدة خاضها الأدب العربي بعد نوم طويل، وحتى الأدباء الفلسطينيون البارزون ظلوا لفترة طويلة يدينون بشهرتهم إلى العواصم العربية التي كانت تفتح لهم صدورها وتتبناهم.

لقد أسهمت عوامل كثيرة في حرمان فلسطين أدبيًا من المركز الذي كانت تتمتع به سياسيًا، وعلى الرغم من ذلك فقد حقق الأدب العربي هناك ازدهاره اللائق، وكان رائدًا قوميًا من الطراز الأول.

لم تصدر لعدد كبير من الأدباء والشعراء الفلسطينيين آثار مجموعة إلا بعد وفاتهم، وكانت الصحف هي المرجع الوحيد لهذا الأثر، ولنذكر على سبيل المثال ديوان إبراهيم طوقان، وديوان عبد الرحيم محمود، وديوان "الرحيل" لمطلق عبد الخالق الذي قام بجمعه أخوه صبحي عبد الخالق، ولذلك فإن دراسة الأدب الفلسطيني بشعره ونثره مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالصحافة، لأن الصحف كانت تخصص صفحات للأدب حيث ينشر الشعراء شعرهم، والباحث المهتم بدراسة التراث الأدبي عليه أن يتتبع الصفحات الأدبية وما ينشر فيها. فكان الشعراء يستغلون هذه الصفحات الأدبية لنشر نتاجهم الأدبي لاستنهاض همم الشعب وإثارة نوازعهم الوطنية، وحثهم على الجهاد والاستشهاد في سبيل الوطن.

انطلقت الصحافة العربية مستوعبة جميع الأقلام الرائدة والواعدة، وانتشرت تلك الصحف بحرية أكثر بعد إعلان الدستور العثماني في تموز 1908، حيث أخذت المطابع الغربية تظهر في بلادنا في أواسط القرن التاسع عشر، وكانت في البداية مرتبطة بالأديرة والمؤسسات التبشيرية المسيحية، ثم انتشرت المطابع الخصوصية في مطلع القرن العشرين في مدن يافا والقدس وحيفا وغيرها[1]، نذكر منها مطبعة الآباء الفرنسيسكان (1847)، ومطبعة خليل نصر في حيفا والتي نقلت فيما بعد إلى عمّان.

---

[1] المواكب، ايار، 1984 ص 7.

وأخذت في أعقاب ذلك تظهر المدارس الخاصة، وأبرزها شبكة المدارس الروسية، التي انتشرت في الجليل ولبنان وسوريا، وكانت في ذلك الوقت دار معلمين روسية في الناصرة، وأخرى في بيت جالا، أخذتا على عاتقهما تزويد تلك المدارس بالمعلمين المؤهلين ذوي الاختصاص المناسب، حيث أتيح للمعلمين الاطلاع على الثقافتين العربية والغربية.

ومن الطبيعي أن يطرأ تحول جذري في كافة مجالات الحياة، فاتسع نطاق التعليم وانتشرت المدارس في كل مكان الرسمية منها والأهلية، فأدت إلى انخفاض في نسبة الأمية، وازداد الوعي الفكري والثقافي[1]. خاصة إذا قارنا هذه الأوضاع الجديدة بما كانت عليه إبان الحكم العثماني.

انتشرت في البلاد الجمعيات والنوادي، ونشأ تحول بارز في الحياة العامة في عهد الانتداب البريطاني، وأصبحت أحسن حالاً من العصر العثماني.

ومع التطور الثقافي والسياسي والاقتصادي، كان من الطبيعي أن يحصل تطور في الأدب الفلسطيني، ويحقق نهضة حقيقية، ويعكس أوضاع المجتمع، ويقف أمام التحديات التي تتربص به، وطبيعي أن يأخذ الشعر دوره في الدفاع عن الوطن وحضّ الشعب على التصدي لما يحدث من نهب للأراضي وقمع للحريات، وان يحرّض أبناء الشعب على الكفاح والنضال. وفي هذا السياق يقول الدكتور إسحق الحسيني حول دور الشعر في المعارك الوطنية بوجه عام:" معظم الشعر الحديث، منذ مائة سنة، شعر سياسي قومي، ولا يخلو ديوان من قصائد وطنية، أو قومية، والشاعر الذي لم يستجب لنداء الوطن اعتبر متخلفًا عن قومه"[2].

يتطرق الدكتور ياغي إلى كثرة الشعراء في العقدين الثالث والرابع من القرن الماضي، بينهم الشعراء والمحامون، والأطباء، ورجال السياسة، والتجار، والمعلمون، والمناضلون ورجال الدين[3]، ومنهم

---

[1] السوافيري، 1973، ص 90–91.

[2] الحسيني، 1985، ص46.

[3] ياغي، 1981، ص 227، وانظر أيضًا عطوات، 1998، ص 113.

إبراهيم طوقان، عبد الكريم الكرمي، يوسف النبهاني، أبو الإقبال اليعقوبي، إسكندر البيتجالي، وديع البستاني، عبد الرحيم محمود، مطلق عبد الخالق، برهان الدين العبوشي وحسن البحيري.

أما أبرز الصحف الأدبية الفلسطينية فكانت "النفائس العصرية" لصاحبها خليل بيدس 1874—1949، والتي صدرت في حيفا سنة 1908، حيث كانت تنشر المقالات الثقافية والأدبية العامة علاوة على التعريف بأعلام الثقافة العالمية، أمثال شكسبير وتولستوي وغيرهما. وكان لهذه المجلة أثرها في مسيرة الأدب الفلسطيني، ولعبت دورًا هامًا في الحياة الثقافية في البلاد.

وهناك ايضا مجلة "الكرمل" لمنشئها نجيب نصار التي كانت تصدر في حيفا.

لم يكتف الأدباء الفلسطينيون بنشر أدبهم في الصحف المحلية، بل تعدى طموحهم حدود بلادهم في الثلاثينيات وما بعدها، وأخذوا ينشرون أدبهم في المجلات والصحف اللبنانية والسورية والمصرية مثل: "الأمالي"، "الطليعة"، "الرسالة"، "الثقافة" وغيرها. ومن ناحية أخرى، أخذت المجلات الأدبية من العالم العربي تتدفق وخاصة المصرية وتملأ الأسواق، وكثر قراؤها من المثقفين الفلسطينيين.

كان مطلق عبد الخالق أحد الأدباء البارزين في الساحة الفلسطينية في العقدين الثالث والرابع من القرن الماضي، وقد عمل محررًا أدبيا لأكثر من مجلة فلسطينية، ونشر فيها مقالاته وقصائده التي كان ينتظرها الناس عامة والشباب خاصة، حيث ساهم كثيرًا من خلال هذه الكتابات في بلورة الشخصية الفلسطينية المناضلة والمكافحة والغير مستسلمة للأمر الواقع. وغرس روح الوطنية وحب هذا الوطن العزيز في نفوس الشعب، فملأ الدنيا بالانتماء والالتحام مع الشعب الذي يقاتل في الشارع وفي الجبل وفي السهل، يقاتل بالكلمة، والبندقية والحجر والنار.

الجانب الانساني

لعل الشاعر مطلق عبد الخالق من الشعراء الفلسطينيين الذين أكثروا من استعمال كلمة "إنسان" وما تعنيه هذه الكلمة من ظلال، كالخير والحب والسلم، ولعله أيضًا من أبرز الشعراء إحساسًا وصدقًا لواقع شعبه المأساوي[1]:

هـلا نظـرت دمـي يسـيل صـبابة والله لـــولا حبـــه مـــا ســـالا
بالله مالكة الفؤاد ترفقي بفتـى غـدا بـين الانـام خيـالا
هـــو في الغـــرام تغـــيرت أحوالـــه إن الغـــرام يغـــير الأحـــوال

يدعو الشاعر في بعده الانساني إلى نصرة الفقراء والمساكين، ويرى الشاعر في ذلك دليل العطاء الذي نصل فيه إلى قيم الخير[2]:

ننقـــذ المســـتجير ونقيـــل العثـــار
ونـواســي الـفـقـيـر ونصـــون الـــديار
ونـــرد الشـــعور نحـــن نـــور ونـــار

كان مطلق عبد الخالق نسيج وحده، حيث كان الشاعر الرومانسي الوحيد في فلسطين قبل ظهور فدوى طوقان، وقد تأثر تأثرًا عميقًا بشعراء المهجر في امريكا الشمالية.

يتجلى الجانب الانساني عند الشاعر مطلق عبد الخالق في عدة حالات، ومواقف انسانية، منها الرثاء الذي يظهر من خلاله حسّه الإنساني وعاطفته الجياشة. رثا الهاشميين في قصائد تفوح منها رائحة القربى منهم، واحترامهم وإبراز مآثارهم، ففي قصيدة "إلى روح جلالة الملك علي" يقول[3]:

---

[1] إغبارية، حسين، حيفا التاريخ والذاكرة، اصدار جمعية التطويرالاجتماعي، حيفا، آب 2001، ص 115–116.

[2] الرحيل، إلى روح جلالة الملك علي، ص 139.

[3] الرحيل، الى روح جلالة الملك علي، ص139.

رزؤنـــا في الهـــاشميين ضـــروب زلزلت مـن هولهـا صـم الجبـال
فيصل غاب ومن قبل حسين والأمـير شـاكر، أسـد النضـال

وفي هذا السياق نستذكر قصيدة إبراهيم طوقان "تعزية البيت الهامشي" التي يقترب فيها من نفس المعنى الذي عبر عنه مطلق عبد الخالق، فيقول إبراهيم طوقان[1]:

ونكبت عن "شاكر" بعد "فيصل" وغالت "عليا" واللواعج في الصدر

يشير مطلق إلى أن بني هاشم قد خلّفوا تراثًا مهمًا، بدأ منذ عهد الرسول (ص)، غير أن المنايا لا تحيد عن الصالحين، فاغتالت الواحد منهم تلو الآخر، وحرمتنا من شموسهم. يتعاطف مطلق مع هول الصدمة وخطورة الموقف، فيقول[2]:

.. وأخـــيرًا قـــد رزئنـــا بعلـــي المليـك المرتجـى سـامي الفعـال
التقي الطاهر القلب، ومن ذا كعلـــي في المزايـــا والخصـــال

وهذا البيت يذكرنا ببيت الشعر الذي قاله الفرزدق في مدح زين العابدين من آل البيت:

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

يتعاطف مطلق بحسه الإنساني مع آل البيت الهاشميين، وينعتهم بالتقى والصلاح، وأن غيابهم عن الساحة العربية هي خسارة فادحة لهم.

وهذه الابيات تتضمن معاني كثيرة مهمة تدلّ على قدرة الشاعر في النظم وحسن الأداء، لأنه يحس بما يقول، ويترجم ما تجول به نفسه إلى كلمات ذات الوقع الموسيقي على المتلقي.

ويبقى الفعل منهم آل هاشم، يأخذ اللب نحو قريحة الشاعر فيستنطقها ردة تلك الفعل التي تثير الإحساس، فتدفعه على شفتي الشاعر لحنًا عذبًا فيه اكتمال للمعنى وإرهاف للحس. هكذا كان يرى الشاعر في الهاشميين دعاة للإنسانية، وما كان مطلق عبد الخالق ليركز على هذه الناحية لولا اهتمامه الشديد بالإنسانية.

---

[1] [1] ديوان إبراهيم طوقان، تعزية البيت الهاشمي، ص 72.

[2] ن.م، ص139

ليس بالزمن وحده تكبر الأوطان، بل بالصنائع والمنجزات والمفاخر، فها هو مطلق عبد الخالق يشير بأعمال وإنجازات الحسين الأول ملك العرب[1]:

ولّدتِ "فكرة" ما أتوا من غشهم وخداعهم في أسطر وصكاك
وأبنتِ أن الحق دومًا ضائع عند الألى لا يسمعون لشاكي
وأبنتِ أن الملك ليس يشيده إلاّ القنا وجماجم الفتاك

أثرت الثورة العربية الكبرى في أنحاء الجزيرة العربية، وصلت إلى صنعاء عاصمة اليمن، وأطلقها نداء حتى جاورت دار السلام والرياض[2]:

وتركت بعدك في الجزيرة صرخةً مضريةً تعنو لها أعداك
وتطلعت "صنعة" إلى دار السلام وجاورت أرض "الرياض" ثراك

فالحسين عمل على تربية الأجيال، ليسترخصوا أرواحهم في سبيل الوطن والبلاد، ويتصدوا للشرك والمشركين[3]:

روح "الحسين" خلقتِ منا أمة تزري بأهل الكفر والإشراك

فنهاية كل مخلوق الموت، ولا خلود ولا طول بقاء في هذه الحياة الفانية، بل طالما هذا هو المصير، فلا بد من القتال لإدراك الغايات[4]:

سئمت حياة الهون واشتاقت إلى الموت الشهيّ ولذة الإهلاك
وسعت إلى الهيجاء لتدرك ثأرها وتلبي الداعي الذي ناداك

يصف مطلق عبد الخالق الملك علي في قصيدة رثاء، بأنه سيد الرجال، فقد بنى عليه العرب آمالاً كبيرةً[5]:

---

[1] عبد الخالق، فيصل، الهاشميون في الشعر العربي المعاصر، روح الحسين الأول ملك العرب، ص 217.

[2] ن.م، ص 217.

[3] ن.م، ص 218.

[4] ن.م، ص 218.

[5] الرحيل، الى روح جلالة الملك علي، ص139.

الرزايـــا في بـــني العـــرب كـــثير من رزايا العُربِ فقدان الرجـال
"فيصل" غاب ومن قبل حسين والأمـير شـاكر ليـث النضـال
وأخـــيرًا قـــد رزئنـــا بعلـــي المليـك المرتجـى سـامي الفعـال

كان الملك علي يتصف بالأخلاق الحميدة والمزايا العالية فتأسف الناس عليه عند انتقاله إلى خالقه[1]:

يـا مليكـا غـادر الـدنيا ليرقـى جنـة الخلـد وفـردوس الجمـال
قد بكيناك أخا العرب كثيرًا وبكتـك المكرمـات والمعـالي

بكت الشمس وبهت بريقها، وحزن الطير وانتحب، وتساقطت الأثمار والأزهار اسفًا على وفاة الملك فيصل الأول، فهذا يدل على قيمة المتوفى لأعماله وأخلاقه وإنجازاته[2]:

الشـــمس في الأجـــواء باهتـــه والـنجم تلـو الـنجم والقمـر
والطيـر مـحـزون ومـنـتـحـب والزهـــر لا عـــود ولا ثمـــر
والبيـــد مائـــدة بأهلـــها والجـو فـوق البيـد معتكـر

يذكر الشاعر مناقب الملك فيصل، ويؤكد له فداحة الخسارة لفقدانه، لكنه يشير إلى أن الحياة قصيرة فمهما طالت فلا بد لها من نهاية[3]:

يـا فيصـل الجبـار؟ معـذرة إنـا – ورب البيـت – نعتـذر
لو كنت تفدى يا "محجتنا" يفـديك فينـا السـمع والبصـر
وهـــذه أيامنـــا دول تعلـو بنـا طـورًا وتنحـدر

فبالغ الشاعر في وصف وتصوير حالة الشعب بعد رحيله، من بدو ومن حضر[4]:

مـولاك يـا مـولاي يندبـه البـدو في البيـداء والحضـر! !
والخلـق والإيمـان والكبـر والمجـد والإخـلاص والظفـر

---

[1] ن.م، ص139

[2] الرحيل، زفرة على فيصل، ص122.

[3] ن.م، ص122.

[4] ن.م، ص122.

والشـــمس والأفـــلاك والقمـــر والجـــن والأمـــلاك والشـــجر

لا ينسى الشاعر الإشارة بآل الحسين الذين جاهدوا وحاربوا قدر استطاعتهم ليحققوا للشعب مآربه[1]:

آل الحسين الله يكلؤكم أضنتكم الأحداث والغير

هذه القصائد مميزة لبيان ما فيها من جمال السبك، وحسن الصنعة، وصدق العاطفة، وإخلاص التوجه.

وماذا يدعو الشاعر في بعده الوطني ؟ إنه يحيي فلسطين الأم والوطن والتاريخ، ويرى في ذلك دليل العطاء الذي نصل به إلى قيم الخير[2]:

هـــي الحريـــة الحمـــراء، تســـقى فتنبت– بالـدم– الشـرف رفيعـا
وتورق في ظلال الموت مجدا أثـــيلاً باذخًـــا، حيًـــا منيعـــا

فالسلام قضية إنسانية، ولا يمكن أن يكون الإنسان إنسانًا وهو يسكت على هضم حقوقه، وها هو الشاعر يتذمر[3]:

هـــــذه أمّ صـــــغار فقـــــدت بعلـــها، تبغـــي لأطفـــال غـــذاء
تســـفك الدمعـــة مـــن مهجتهـــا زفـــرة حـــرّى ونـــارًا ودمـــاء
يـــا لهـــا بائســـة حـــائرة تكـــتم البـــؤس وتخفيـــه حيـــاء

يصور الشاعر مستوى الإنسانية الرفيع عند العرب وكيف تتسم بالرحمة والشفقة وحسن الجوار، عكس ما قابلهم به الأعداء، فهنا تبرز الإنسانية بأجلى معانيها[4]:

قـــد غـــدرتم ونقضـــتم ذممـــا فجزينـــــــــاكم ودادًا وولاء
وحـــــرقتم دورنـــــا آهلـــــة فآوينـــــاكم رجـــــالاً ونســـــاء

---

[1] ن.م، ص123.

[2] الرحيل، فلسطين الشهيدة، ص 15.

[3] الرحيل، تحية الشهداء، ص 14.

[4] الرحيل، تحية الشهداء، ص13.

وزرعنـــــا فـــــيكم مرحمـــــة فحصـدنا مـنكم الشـتم جـزاء
دأبنـــــا هـــــذا، وذا دأبكمـــــو بعُـد الفـرق ومـا نحـن سـواء

تتجلى الناحية الإنسانية عند الشاعر حيث يتحدث عن شهداء الوطن، ومدى مساواته لهم وسمو حسّه الإنساني نحوهم وتقديره لهم ولمآثرهم، فلا يصدر هذا إلا عن شاعر إنسان[1]:

أنشـــد الشـــعر وحـــيّ الشـــهداء واجد فيهم، أخا العرب، الرثاء
وامـــلأ الـــدنيا حنينـــا وجـــوى وفـــم الـــدهر مـــديحاً وثنـــاء
حـــي ذكـــراهم وقـــف في حـــيهم وتخيلـــهم صـــباحًا ومســـاء
واســكب القلــب علــى أرماســهم قطــرات واذرف الــدمع دمــاء

فليست الإنسانية أن يغمض الإنسان عينيه، بل عليه أن يكافح الشر أينما كان ويعمل على إحقاق الحق، وشاعرنا لا يريد أن يعامل معاملة أدنى، ويخرج بصوتٍ عالٍ مدوٍّ ضد العنصرية ونزعة الاستعلاء التي هي نقيض الإنسانية[2]:

أنشد الشعر، أجب من نعتـوا العـــ رب نعتًـــا كـــان ســـخفًا وهـــراء
زعمـــــوا أن (وحـــــوش) كـــــذبوا وادعـــــوا إفكًـــــا وزورًا وافـــــتراء
إن هـــــذا الـــــزعم لا نعبـــــأ بـــــه نحـــــن نوليـــــه ازورارًا وازدراء
وســـلوا التـــاريخ عـــن أمجادنـــا وبـــني الـــدنيا جميعًـــا والســـماء

من صفات الإنسان ألا يحقد، وأن يعامل الناس بروح المساواة، وألا يكن ذا وجهين، فهنا تبرز قمة الإنسانية[3]:

عشرون عامًـا قـد مضـين ولم تكـن يـــا يـــوم إلا ريبـــة المرتـــاب
أو لست ذا وجهين: وجه باسم لهـم .. ووجـه بـارز الأنيـاب؟
دخلـوا بـلادك فـاتحين، فصـنتهم وأذقتنـا، يـا يـوم، مـر العـذاب

[1] الرحيل، تحية الشهداء، ص11.
[2] الرحيل، تحية الشهداء، ص12.
[3] الرحيل، يوم الهوان، ص49.

الكذب صفة ذميمة لا تمت بصلة الى الإنسانية، لأنها تحارب الكذب والوعود الكاذبة[1]:

لهفي على الوطن العزيز يذله وعد العدو وهزة القرضاب
ينبيك كاذب وعده عن ختله! يا للعدو، ووعده الكذاب
فتح البلاد وقال: أنتم أهلها يا صفوة الأحلاف والأحباب
آمالنا آمالكم .. وقلوبنا قد حنّ خانعها إلى الأعراب
حتى إذا جد الزمان وأمل الأعراب بالأسلاب من سلاب
سخر العدو وفي مرارة سخره عبث السراب الخادع الخلاب

كل دعوة تدعو إلى الحب، حب الأعداء قبل الأصدقاء، كل دعوة خيّرة، وهي جنة الإنسان ومثله الأعلى نحو الحقيقة والحق. هذه المبادئ دعا إليها الشاعر قائلا[2]:

فتحوا البلاد وقال فاتحهم: هنا مجد الصليبيين عاد يقام
فتحت أنت وقلت: نصرانية لا تحقروا، وليحمها الإسلام
ما أبعد القولين، هذا سائغ عذب، وذاك تمجه الأفهام
لا تشتموا يا هؤلاء، فإننا قوم على رغم الزمان كرام

يتبين لنا كيف أن الشاعر مطلق عبد الخالق يدعو إلى تربية إنسانية حيث يشير إلى إرتباط الإنسانية بالحب والسلام، فهو يتحدث عن قضايا شعبه على صعيد إنساني غير متعصب. يدعو إلى نفي مظاهر الحقد والتعصب.

آفات اجتماعية:

مع تعدد جوانب الثقافة في العالم العربي وفلسطين، لمسنا اهتمامًا خاصًا من قبل مطلق عبد الخالق، إبراهيم طوقان، أبي سلمى وعبد الرحيم محمود في قضايا المجتمع، فقد تطرق هؤلاء إلى الطبقات الكادحة والدعوة إلى الرأفة والعطف على الفقراء والأيتام، كما نقدوا أمراض المجتمع

[1] ن.م، ص49.

[2] الرحيل، عمر العظيم، ص107.

وحملوا على بائعي الأرض والزعامة المزيفة، داعين الى التمسك بتراب الوطن.كما ساعد هؤلاء الشعراء بقصائدهم الاجتماعية المنكوبين من النوازل والكوارث، كما اشتمل الشعر الاجتماعي على الدعوة للوحدة الوطنية ونبذ الخلاف والفرقة من أجل مواجهة الهجرة اليهودية التي تغزو الوطن.

تناول الشعر الاجتماعي الأدران والأمراض التي دبت في جسم المجتمع ونخرته، فدعا إلى استئصالها حتى لا تستشري في المجتمع وتُغَيّر ملامحه الإيجابية. واتسم الشعر الاجتماعي بالسهولة والوضوح والبعد عن الإبهام والغموض والمغالاة.

تناول الشعراء بنقدهم البخلاء والأثرياء الذين يبخلون بأموالهم على الفقراء، وبأعمال البر والخير، وحملوا على المنافقين والمتكبرين والجهلاء بالسياسة والعلم والمقلدين للغرب. ويرمي الشعر الاجتماعي إلى تهذيب الخلق، وزيادة الوعي الاجتماعي، وإنهاض الهمم والعزائم، وتوعية الناس وتبصيرهم بحقوقهم. حذر الشاعر مطلق عبد الخالق من الخلافات التي عصفت بالوطن وسببت الضعف والوهن، فدعا إلى التلاحم ونبذ الخلاف، وإلى التضامن والإخاء الذي من شأنه أن يقود إلى خير ورفاهية البلاد والعباد.

وينظر إلى من أطغته الثروة، فعمي عن طريق الخير والإحسان فينتقده نقدًا لاذعا، ففي قصيدة "العامل" يقول[1]:

يـــــا غنيًّـــــا بمالـــــه	رق قلبًـــــا ولا تجـــــر
إنمـــــا العامـــــل امـــــرؤ	غالـــــه غائـــــل الغـــــير
فيـــه مـــا فيـــك يـــا أخـــي	مـــن ميـــول ومـــن فطـــر
مـــن عظـــام ومـــن دم	مـــن خيـــال ومـــن فكـــر
إنـــــه مـــــن مشـــــاعر	إنـــه لـــيس مـــن حجـــر

العامل هو من يتعب ويشقى ويضحي بسعادته من أجل الآخرين، ويؤمّن لهم الحياة الحرة الكريمة بعرق جبينه، فيعمر البلاد ويخدم العباد بجد ونشاط وصبر بأجور زهيدة نسبيًا. إنهم

[1] الرحيل، العاملن ص164.

يقدمون كل عون للمجتمع، يعمل والعين تدمع، والصدر متكدّر، ويعتصره الأسى والبؤس من الظلم وقسوة المعاملة[1]:

شـــــارد اللـــــب والفكـــــر خاشـــع القلـــب والبصـــر
في حنايـــــــاه شـــــــعلة تتلظـــــــى.. ولا تقـــــــر
في مآقيـــــــه دمعـــــــة كالشـــــآبيب تنهمـــــر
في ثنيّـــــــات صـــــــدره زفـــــرة الهـــــم والكـــــدر
في تضـــــــاعيف نفســـــــه تنطـــــوي عـــــبرة العـــــبر !
هـــــو للبـــــؤس صـــــورة ومـــن شـــجون الأســـى صـــور

كما يتناول الشاعر مطلق إحدى الآفات الاجتماعية التي تعطل عقل الإنسان وتدفعه إلى متاهات الرجس والباطل، فالشاعر يصور لنا خمسة شباب من أبناء وطنه يحتسون الخمر في إحدى الحانات، ويقضون أوقاتهم في اللعب واللهو ومداعبة بائعات الهوى، مخالفين بذلك أمر الدين وسنن الأخلاق الحميدة، فأين همُ من الشباب الذين انبروا للدفاع عن وطنهم؟

إنهم غارقون في مجونهم سعيًا وراء لذة الجسد بعد أن وقعوا في حبائل بنات صهيون. ففي قصيدة "نسمة الوطن" يقول[2]:

شمـــــت بـــــالأمس فتيـــــة همهـــــم لـــــذة البـــــدن
فـتيـــة قـيـــل إنـهـــم عـــرب، مـــن بـــني الـــوطن
خمســـــة في حمـــــى العـــــدى كلـــــهم لـــــزّ في قـــــرن
في تشـــــــاعيب حانـــــــة يحتويهـــــا رشـــــا أغـــــن
مـــــن بنـــــات الألى امـــــتلا بهـــــم الســـــهل والحـــــزن
فتيـــــة ويـــــح يـــــومهم خـــــالفوا الـــــدين والســـــنن

[1] ن.م، ص163.

[2] الرحيل– نسمة الوطن– ص134–135

واحتســـــــوها ســـــــلافة بعثـــــت فـــــيهم الـــــوهن
فبنـــــى النـــــوم فـــــوقهم قنـــــت دونهـــــا القـــــنن
ومضـــــت ســـــاعة علـــــى نـــــومهم.. فـــــارعوى الوســـــن
إذا أفـــــاقوا علـــــى صـــــدى جلبـــــة تجلـــــب الضـــــغن
ورأوا فـــــــوق هـــــــامهم أكـــــؤس الـــــراح تمـــــتهن
ولقـــــــوا في ثيـــــــابهم ميعـــــة الخمـــــر، والأســـــن
فبـــــــدوا في لباســـــــهم كالمجـــــانين.. في الكفـــــن
قـــــال بعـــــض لبعضـــــهم شـــــاخص الطـــــرف كـــــالوثن
"صـــــاح مـــــاذا جـــــرى لنـــــا إنـــــه الســـــحر والفـــــتن
أنـــــا مـــــا كنـــــت داريًـــــا أن هـــــذا الهـــــوى يجـــــن
فيـــــــــواري كؤوســـــــــنا أطهـــــر الجـــــو والـــــدمن"
لـــــيس ذا الســـــحر، صـــــاحبي إنـــــه الهـــــذر والافـــــن
إنـــــه الهـــــم والاســـــى إنـــــه الصـــــد والحـــــزن"
أي ثيـــــــابي تطهـــــــري واخلعـــــي الـــــرجس والـــــدرن
فتيـــــة الكـــــأس حســـــبكم واذرفـــــوا عـــــبرة الشـــــجن

يتحسس الشاعر ظروف هؤلاء العمال الكادحين ومعاناتهم، فيصور العمال في قصيدة (نشيد العمال) ويبين أنهم يعملون بجد ونشاط دون أجر، وكيف أنهم بؤساء، عبيد وضحايا الجوع والموت، يحثهم على الثورة ضد الطغيان والاستعباد وضد الاحتكار والاحتقان، يحثهم على رد الضيم وإشعال نار الانتقام[1]:

بؤســاء الــدهر يــا قــوم العبيــد يا ضحايا الجوع والموت الـزؤام
استعدوا، حاربوا، الخصم العنيد واشعلوا في القلب نـار الانتقـام
واهــدموا، في عصــرنا كــل قــديم وارفعوا عن ظهركم نـير العـذاب

[1] الرحيل، نشيد العمال، ص170.

فتقيمـــوا في غـــدٍ "كونًـــا" عظـــيم كان بـالأمس صـريع الاضـطراب

يبين أيضًا أنهم عاجزون لا معين لهم ولا مساند، لا زعيم ولا مليك، ولكنهم مشحونون بالعزيمة والإرادة والإيمان[1]:

مـا لنـا في سـاحة الحـرب معـين لا زعـــيم لا مليـــك، لا قضـــاء
نحـــن بالإيمـــان والعـــزم المـــتين نفـتح الثغـر لنسـتجلي الضـياء

الآفات الاجتماعية داء فتاك تنخر في جسم المجتمع الذي تحل فيه، فتعيقه عن التقدم والنجاح، وتفقده الراحة والسعادة أو الكرامة والتقدير، فإذا قويت واشتد خطرها فإنها تهدم المجتمع الذي تحل فيه، وتؤدي به إلى الضعف والانحلال.

كان يجدر بالشعب الفلسطيني والعربي أن ينهض بعد ما حل به من ويلات ونكبات، ويعالج أسباب فشله والآفات المنتشرة في صفوفه، ولكنه لم ينجز إلا القليل مما يتوجب عليه في هذه المجالات.

كانت فلسطين تغلي كالمرجل بعد تدخل الزعامات العربية لإيقاف الإضراب الكبير بضغط من اليهود والإنجليز، وأخذ مفكرون وشعراء وصحافيون ينددون بذلك، واعتبروه ضعفًا وإنه ينبغي اجتثاثه أو إصلاحه على الأقل، فضعف الزعامة العربية سبب شللا لدى الوطنيين، ولام مطلق الزعماء على طريقتهم في حل القضايا، والتي تقوم على تقديم المذكرات إلى حكومة النتداب.[2]

وفي هذا السياق يقول الشاعر مطلق عبد الخالق[3]:

قـــدمتم قبـــل أيـــام مـــذكرة إلى الحكومـة يـا قـوم الزعامـات
ماذا جنيـتم سـوى إعـراض أمـتكم عنكم وغير شماتات الحكومـات

---

[1] ن.م، ص 170.

[2] عطوات، محمد عبد.الإتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر.

[3] الرحيل، مذكرة، ص60.

ضياع الشباب في حالة مجتمعهم الذي يعج بالفساد والانحلال واللهو وقلة الوعي، يعتبر آفة اجتماعية تشكل خطرًا على هذا المجتمع، لأن الشباب هم عماد المجتمع وركنه القوى المتين، وما داموا منغمسين في الملذات وبعيدين عن هموم شعبهم فلا خير يرجى منهم، يقول الشاعر[1]:

ونحــن الشــباب نحــب الجمــال ونهـوى الشـفاه ونهـوى العيـون
نهــيم حيــارى ليحيــا الجمــال ويحلــو لنــا أن نــرى هــائمين

ولعل أوضح صورة لموقف السلطات البريطانية ومدى تصميمها على تنفيذ سياستها المعادية للعرب، ما صرح به " المستر تشرتشل" وزير المستعمرات البريطانية آنذاك، في أثناء زيارته لفلسطين في 1921/3/28، الذي قال معلقًا على المذكرة العربية التي قُدّمت مطالبة بإلغاء "الوطن القومي اليهودي" ووقف الهجرة وبيع الأراضي[2]:

"إن تصريح بلفور أمر واقع، نشأ عن الحرب وليس في وسع العرب في فلسطين أن يفعلوا شيئًا غير الموافقة عليه".

تجدر الاشارة هنا أن الشاعر مطلق انتقد هذا الموقف ونظم قصيدة أسماها "مذكرة" ينتقد فيها العرب لتقديمهم هذه المذكرة بدون جدوى.

[1] الرحيل، حياة البغي، ص 130.

[2] إغبارية، حسين، حيفا التاريخ والذاكرة، إصدار جمعية التطوير الاجتماعي، حيفا، آب، 2010، ص138.

الفصل الثالث: مؤلفات

ديوان "الرحيل":

يحتوي على 73 قصيدة غير مؤرخة، وأناشيد وطنية. يجمع الديوان بين القصائد: الوطنية الحماسية، والقصائد الغزلية، وقصائد الكآبة وخيبة الأمل من الحياة الفانية، وقصائد مليئة بالصوفية، والتأملات النفسية. وهناك قصائد أخرى تتعلق بالتراث، وأبطال مسلمين ومجاهدين تركوا بصماتهم على التاريخ العربي والإسلامي. كما نجد قصائد في وصف الطبيعة الغنّاء التي تعتبر بالنسبة له مصدر حماية يلجأ إليه من يحس بالإحباط والكآبة، وأخرى في وصف الطبقات الكادحة، كالعمال مثلاً. كما كتب قصائد تمجيد وافتخار للمعتقلين في سجون عكا و صرفند.

وقد نظم مطلق قصائد رومانسية يمكن من خلالها أن نكتشف الاتجاه الرومانسي مثل قصائد الغزل والحب، التي تتسم بالخيال أكثر من الواقع، والحب عنده عاطفة تنبض بالأحاسيس والانفعالات. أضف إلى أن قسطًا وافرًا من قصائده تدور حول مرضه، وما لقيه من معاناة وآلام، عبّر فيها عن حزنه الشديد وخيبة أمله من الحياة.

ضجعة الموت

كانت فلسطين في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي مسرحًا لأحداث دامية يضرب الاضطراب السياسي أطنابه على أرجائها، وتتصارع فيها القوى القومية في معارك مصيرية. وكانت تصدر فيها عدة جرائد "الدفاع"، و"فلسطين"، و"الجامعة الإسلامية"، ومن الطبيعي في ظروف كهذه أن ينصرف الشعراء إلى الشعر السياسي قبل غيره من مواضيع الشعر.

نظم الشاعر مطلق عبد الخالق ملحمة شعرية بعنوان "ضجعة الموت"، وفي هذه الملحمة تجاوز لشعر عصره، باستخدام الرموز الإغريقية، ولكن لهذه الملحمة الفريدة قصة مثيرة وجديرة بالاهتمام والدراسة، إذ أن أساسها فكرة للدكتور داهش بك[1]، هذا المشعوذ العبقري الفلسطيني الذي كان يدعي النبوة، وكان الشاعر مطلق عبد الخالق والشاعر اللبناني حليم دموس من مريديه.

[1] يقال أن د. داهش ناصري الأصل، وابنة أخته قرينة القاضي فريد وجدي الطبري، إلا أننا لا نعرف عنه شيئا منذ غادر حيفا إلى بيروت، إبان الحرب العالمية الثانية، وإقامته في بيروت خلقت مشاكل كثيرة، فقد نادى

كان يسكن في حيفا الأديب الفلسطيني المعروف وديع البستاني[1]، الذي طلع على العالم العربي بترجمة عربية موفقة لرباعيات الخيام، ووضعها في سباعيات نقلاً عن الترجمة الإنجليزية لفتسجرالد، وكان البستاني يفتخر بأن أمير الشعراء أحمد شوقي أعجب بإحدى سباعياته كل الإعجاب.

وفي حيفا أيضًا عاش الأديب الكبير الأستاذ خير الدين الزركلي[2] وكان فارًا من دمشق، بعد حكم أصدره الحكام الفرنسيون عليه لوطنيته، فأقام في حيفا منفى اختاره لنفسه. وكان ذا روح ثائرة، وهو الذي يقول في أحداث دمشق وفلسطين:

الأهـــل أهلـــي والـــديار ديـــاري وشعار وادي (النيربين) شـعاري
دمعي على أهلي هنا جارِ هنا ودمـي هنـاك علـى ثراهـا جـار

وكان يلازم هذا الشاعر القدير صديق له، يحب الأدب ويعشق الشعر، هو الدكتور داهش بك، المنوم المغناطيسي المعروف، وكان صديقًا لخير الدين الزركلي، وكان الدكتور داهش منفيًا هو الآخر من مصر بأمر من صدقي باشا رئيس وزرائها آنذاك في أعقاب حادثة غرام جرت للدكتور داهش في القاهرة، فلقد كان يدعى إلى بلاط الملك فؤاد للقيام بألعابه المغناطيسية المدهشة، فتورط في حب إحدى بنات القصر، وتورطت هي أيضًا في حبه، فأدت هذه المغامرة الغرامية إلى إبعاده عن مصر، فاختار حيفا منفى له متحينًا الفرصة للرجوع إلى مصر، حيث سبق له أن عاش برفاه وبحبوحة

الدكتور داهش بحركة دينية سماها "الداهشية". انضم إليها بعض اللبنانيين، منهم الشاعر حليم دموس. وكان يثير الفتنة في لبنان كلها، فان إحدى قريبات رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري، انتحرت بتأثير داهش المغناطيسي عليها، وكانت تحبه فماتت من أجل الداهشية، كما أمرها مولاها ومعشوقها، فما كان من رئيس الجمهورية إلا أن سجن د. داهش في قلعة راشيا، وقضى بذلك على نشاطه الداهشي واختفت آثاره هناك.

[1] ولد وديع البستاني في عام 1886في بلدة الدبية في لبنان. وهذة البلدة معقل الأسرة التي أنجبت كوكبة من كبار رجال عصر النهضة.

[2] 1893–1976، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزِرِكْلِيّ الدمشقي، مؤرخ وشاعر وقومي وكاتب.

من العيش بفضل مهنته. وعبثًا وسّط الدكتور داهش صديقه الشيخ أسعد الشقيري، والد أحمد الشقيري ليشفع له لدى صدقي باشا.

ألهبت هذه المغامرة روح الدكتور داهش الشعرية، فخرج على الناس بمجموعة من الشعر المنثور صرف على طبعها مالاً كثيرًا، وسماها داهش بك "ضجعة الموت"، طبعت بكليشيهات خاصة مكتوبة بخط الخطاط المشهور نجيب بك الهواويني، خطاط الملوك[1]، وكلف أحد رسامي إيطاليا، الرسام مورلي، برسم معظم الصور التي تحلي المجموعة، ولكل صفحة صورة خاصة تعبر عن مضمون تلك الصفحة، ولم تستعمل حروف الطباعة في الكتاب بالمرة.

وصاغ هذا الكتاب شعرًا الشاعر النصراوي مطلق عبد الخالق، فخرج الكتاب في صيغتين، إحدهما نثرية لداهش بك، والأخرى شعرية لمطلق عبد الخالق، الذي صور أفكاره بمجموعة من القصائد في ديوان مشترك مع الدكتور داهش بك حمل اسم "ضجعة الموت" أصدره قبل رحيله بعام، وفيه مجموعة من التأملات والخواطر النفسية للشاعر مطلق عبد الخالق. فهو يصور ضجعة الموت بقوله[1]:

أغمض الشاعر عينيه ونام فاستراح
نومه نوم سكون وسلام وارتياح
إذ نسى في نومه كل الأنام والكفاح
سرق النور دجى الليل فقام في الصباح
فإذا النور ظلام
فكر الشاعر في هذه الحياة وتأمل
وسعى بطلب للنفس النجاة وتسلّل
فإذا الآمال شك واشتباه فتحمّل
ومضى في سيره! خارت قواه فتململ
وتمنى أن ينام

[1] الرحيل، على شاطىء الحياة، ص115.

يؤمن داهش بك أن الحياة مليئة بالشرور ومشبعة بالفجور، وأن هذا العالم رهيب بأحزانه. وكان على اطلاع واسع وعن قرب بحياة مطلق عبد الخالق، وبأنه طالما تمنى الموت (وقد ناله فعلاً وهو لا يزال في ريعان الشباب). كما اعترف الدكتور داهش أن مطلقًا ضحى من أجله بالشيء الكثير، وبقي على إخلاصه وصفائه له حتى وافته المنية[1]. كان يعتبر مطلقًا قطعة منه، وبقي على هذا الحال حتى اختطفه الموت منه، كان يعتبره ملكًا له، ويعمل وفق ما يشتهيه، لأن مطلقًا كان أحد مريديه ومؤيديه، ويعترف مطلق عبد الخالق أنه كان مخلصًا ووفيًا له ومساندًا لفكره ودعوته الداهشية.تدعى الملحمة الشعرية "ضجعة الموت" أيضًا باسم "بين أحضان الأبدية"، طبعت في اليوم الأول من سنة 1936 في مطبعة دار الأيتام السورية، ويبلغ عدد صفحاتها 208.

ينظم الشاعر مطلق عبد الخالق أربعة أبيات من الشعر كمقدمة للكتاب "ضجعة الموت"، يقول[2]:

هذا خيالي خفيف الظل قد كَمَنَت ... فيه خيالات آمالي وآلامي
تبغي انطلاقًا خيالاتي فتمسكها ... رغائبي ولُبَاناتي وأحلامي
فأنثني ساهِمَ النَّظراتِ مضطربًا ... أستَلهِمُ الشعر من عُلوِيٍّ إلهام
ويرتقي بي خيالي عاليًا فأرى ... في "ضجعة الموت" إنهاءً لأسقامِ

(مطلق)

أما الدكتور داهش بك فكانت افتتاحيته بهذين البيتين من الشعر[3]:

أرنو، مُصَعِد طرفَ الحُب، مرتقبًا ... فكاكَ أسري من ذا العالم
يا غبطة النفس! لمّا ينتهي أجلي ... متى تبدّد آلامي وأحزاني ؟

ثم قدم الشاعر مطلق إهداءً للكتاب بأبيات من الشعر، يقول[4]:

---

[1] من شهادة الدكتور داهش بك في حفلة التأبين التي أقيمت لمطلق في الناصرة، مسقط راسة.

[2] الرحيل، ضجعة الموت، ص 4.

[3] ضجعة الموت، توطئة الكتاب، ص11.

[4] ضجعة الموت، الإهداء، ص 6.

يـــا عنصـــراَ للجمـــال ومصـــــدراَ للحنـــــان
يا رمز هذي الخفايا وســـرّ تلـــك المعـــاني
يـــا هائمًـــا في الخيـــال وتائهًـــا في المغـــاني
يـــا هازئًـــا بالحيـــاة وزاهـــدًا في الغـــواني
يـــا منبـــع الـــذكريات وكـــــوثر الافتتـــــان
يـا داهشًـا جئـت أرضًـا محفوفـــة بـــالهوان
في ضـجعة المـوت تبـدو لنـــا كـــأدنى مكـــان
يـــا طلســم الخلــق طُــرًّا ولغـــز هـــذا الزمـــان
أهـــديك صـــاحِ كتـــابي إذ فيـــه منـــك بيـــاني

(مطلق عبد الخالق، القدس)

جَشّم مطلق عبد الخالق نفسه في تحويل صيغة النثر إلى صيغة الشعر بسبب احتوائها على فيض الوجدان، ودموع العيون، ودماء القلوب، ونفثات مصدور، وأنّات موتور سئم الحياة، وعاف الناس، واتجه بكليته إلى عبادة المبادئ السامية وتقديس المثل العليا.

عند مطالعتنا المتأنية لكل القطع الشعرية في "ضجعة الموت"، يقع نظرنا على "ديانا" التي هي ليست كسائر الديانات التي تختال في الطرقات، وتجول في الأسواق، تنتظر بناظرين كالزئبق يمنةً ويسرةً، مكونة من لحم ودم وعظام، بل هي "ديانا" أثيرية شفافة لا تدركها بالحواس الخمس، بل تكاد لا تدرك بالضمير، إنها لطيفة في منتهى اللطافة، تعرّف إليها الدكتور داهش بك، فتعلقت روحه بها، وتعشقتها نفسه منذ الأزل، وقبلما وجد الكون.

ومنذ ذلك الحين وهو، يهيم بذكراها ويتوق إلى لقياها، بل نراه في مواقف عديدة، يطلب الموت السريع في سبيل بلوغ هذه الأمنية، أمنية لقائها، والاجتماع بها على صفحات هذا الكون. وخير شاهد على ذلك البيتان اللذان مرا معنا سابقًا، وهما مفتاح فلسفة "ضجعة الموت"، بل مفتاح فلسفة داهش بك نفسه:

يا غبطة النفس لمّا ينتهي أجلي متى تُبَدَّدُ آلامي وأحزاني؟

إنها فلسفة عقدة المشاكل ومشكلة العقد، وكان عمر الدكتور داهش بك آنذاك لا يتجاوز الثالثة والعشرين، وقد اعتزل الناس وزهد في الحياة وصاح بأعلى صوته متألمًا: "متى تبدّد آلامي وأحزاني".

انظر إلى داهش بك وهو يقول في القطعة السابعة من القسم الثاني[1]:

قـل لمـن كانـت المُسـبِّب في لَفـ ظـي، لأرض الشـقاءِ كُفـي
قل لها أن صَحبها خير سلوى وعـزاءٍ، فـلا تَشُـقّي الجُيوبـا
قـل لهـا كنـت في حيـاتي ميتًـا ذا حيـاةٍ... أعـدُّ فيهـا الـذنوبا
قـل لهـا صـاحِ، أنـني بعـد نبـذي هـذه الأرض قـد نبـذت الكروبـا
قـل لهـا كـان نـاظرًا شَـطرَ أمـرِ لـيس يَدريـه، شمـالاً أم جنوبـا
كـان يُلقيـه حالمًـا في منـامِ وعيون اليقظـات تُحيـي القلوبـا
قـل لهـا، كـان يـا منـاط الأمـاني موجَعَ الـنفس في الحيـاة غريبـا
قـل لهـا، يـا حمـامتي إن أمـرًا شـاء فيهـا لـه الحيـاةَ نصـيبا!

قل لمن كانت السبب في وجودي على أرض الشقاء أن لا تحزن، قل لها إني كنت حيًّا ميتًا عندما كانت فيّ الحياة، قل لها إنه مسرور بمغادرته دار الفناء إلى دار البقاء، قل لها إنه كان يطمح منذ الطفولة إلى أمر لا يدرك حقيقته، ولا يعلم مكانه، قل لها إنه كان غريبًا عن هذا العالم الموبوء دار الشقاء.

كيف يمكننا أن نتصور أن مخلوقة من مخلوقات الله، تكون السبب في وجود شخص كالدكتور داهش بك على ظهر هذه الأرض التي يسميها "أرض الشقاء"، ونتساءل كيف عرف الدكتور داهش أن هذا مكتوب له في لوح القدر، وعلى صفحة الوجود، وهو راضٍ عنه كل الرضا. فهذه

[1] ضجعة الموت، القسم الثاني، القطعة السابعة، ص28.

الرمزية ترمي إلى طلب الموت، واحتقار الحياة، والزهد فيها. ويظلّ يعاني من الشقاء والبعد عن ديانا، يقول[1]:

وفَقَــدتُ حنــوّ هــذي البرايــا وبَلَــوتُ العنــاء بعــد الشــفاء
ليتني ألقى من يحن ويرثي لــي رثــاء الصــندوق في بأســائي

يتوق الدكتورداهش بك إلى مصر، التي عاش فيه زمنًا طويلاً، وكانت موقعًا دافئًا له، أحس فيها بالطمأنينة والحب[2]:

إنَّــهُ مِصــرُ — آه – يــا مصــرُ إنــي واضــع فيــكِ منــيتي ورجــائي
فيك يا مصرُ منيةُ القلبِ ذاتُ الـ حسـن يـا مصـرُ يـا مقـرّ هنـائي

وفي قصيدة أخرى يحن إلى العودة إلى مصر، حيث كانت له تجربة غرامية[3]:

إنـــه مصـــرُ ! الأمـــل الـــوا سع، في مصرَ، أن يراها قريبًا
إهِ ! يــا مـصـرُ، يا فـتـاتـي أنت يا مصر قد جمعت القلوبا

فيأتي دور ندى ابنة ديانا أمام قبري والديها وهي تقول بعد مرور عشرة أعوام[4]:

إيــه أمــي ووالــدي! قــد عرانــي بعد هـذا الفـراق مـا قـد عرانـي
ارجـعــا لي.... لا تتركانـي فإنـي ذُبـتُ وجـدًا، بـاللّه لا تتركـاني
أنــا ابكــي الفِـراق هيــا أعلمــاني هل يعود من مات، هيا أعلماني
وإذا — إلا — لم تريـــدا رجوعًـــا بعـد نـأيِ — إليكمـا فـادعُواني
إيــهِ، أمــي! ألــيس هــذا حقيقًـا لِمَ ذا الصـمتُ يـا منـاط الأمـاني

[1] ضجعة الموت، القسم الأول، القطعة الرابعة، ص22.
[2] ضجعة الموت، القسم الأول، القطعة السادسة، ص26.
[3] ضجعة الموت، القسم الثاني، القطعة الثامنة، ص30.
[4] ضجعة الموت، ص202.

ويختم الشاعر ملحمة ضجعة الموت ببيتين من الشعر[1]:

ذا كيوبيـد كاسـرًا قـوسَ حـبٍّ آسـفًا نادبًـا ضـحايا الغـرامِ
إن هذي المأساة لم يَبدُ فيها غـير بـؤس وخيبـة وانتقـامِ

والتقى العاشقان في نهاية المطاف في جنة الخلد، بعد مغادرتهما دار العناء والشقاء[2]:

يـا غريبًـا أنظرهمـا في هنـاء بعـد مـا غـادرا ديـار الشـقاء
حيث دار الخلود ثمة والبشر الجميـل، وحيـث دار الهنـاء

ويقول[3]:

ذي ديانـا وذا الحبيـب وهـذي جنـة الخلـد تحتـوي عاشـقين
يا لذكرى ماضيهما حيث كانا من خلـودِ الحيـاة صـفر اليـدين

يشترك مطلق عبد الخالق ود. داهش بك برؤيتهما التشاؤمية إلى الحياة، ككونها فانية وزائلة، وليس فيها ما يدخل البهجة والسرور إلى نفس الإنسان.
فتأثر مطلق كثيرًا بنظرة داهش بك التشاؤمية التي ألقت بظلالها على حياته وكان لها أعظم الأثر على نفسية مطلق ونظرته للحياة.

الكتابات النثرية

لم يكن مطلق عبد الخالق شاعرًا فحسب، بل امتاز أيضًا في كتابة النثر، كتب قصصًا كثيرة في صحف ومجلات كانت تصدر في فلسطين، خاصة وإنه كان رئيس تحرير لبعضها، وعمل في صحف أخرى كمراسل وكاتب، "النفير" مثلاً، ومجلة "كشافة الصحراء" التي أنشاها بنفسه، أما القصص التي كتبها ونشرها مطلق عبد الخالق في الصحف والمجلات فهي:

---

[1] ضجعة الموت، ص 204.
[2] ضجعة الموت، ص198.
[3] ضجعة الموت، ص200.

1. "خواطر والآم" – هي عبارة عن مجموعة مقالات أدبية، وتأملات نفسية، عبر من خلالها الكاتب عما يدور في خلده من معاناة للشعب الفلسطيني.
2. مجلة "كشافة الصحراء" – التي أنشاها وحررها وكانت تصدر في حيفا، وكانت منبرًا لجميع أصحاب الأقلام الحرة.
3. قصة "جمعية القرود" – قصة من نسج خياله.
4. "مصطفى كمال وابن السعود" – قصة حلم بها فصاغها لغويًا.
5. "أصغار الإله".

كانت تلك القصص تعكس العقلية الجبارة التي كان يحملها، والنفس المؤمنة الأبية والوطنية، كتب عشرات القصص التي كانت صورًا ناطقة عن هذه الحياة السخيفة الفانية. كان أسلوبه بالكتابة من نوع السهل الممتنع.

في كلمة التأبين التي ألقاها الشاب الأديب عاطف نور الله نقتبس ما يلي[1]:

"ليتني يا أخي أستطيع أن اقرأ لكل إنسان ما كنت تقرأه لي، وما كنت أقرأه فيك، بل ليت الناس يتصفحون قصة واحدة من عشرات القصص التي كان يمليها عليك العقل وتلهبها العاطفة والتي كانت صورًا ناطقة عن هذه الحياة السخيفة أو يطالعوا على الأقل، (جمعية القرود) التي تخيلتها و (مصطفى كمال وابن السعود) الذي حلمت به، ليدركوا أية عقلية جبارة كنت تحملها وأية نفس مؤمنة أبية وطنية كانت هي نفسك، ثم يدركوا معًا عظم الخسارة وفداحة المصاب.

[1] الرحيل، ص237.

الفصل الرابع: الشكل والأسلوب

1. اللغة الشعرية
2. الموسيقى الشعرية

اللغة الشعرية

يتناول هذا البند أهمية اللغة الشعرية وكيفية توظيفها في خدمة أهداف الشاعر وتبليغ رسالته إلى قارىء شعره، كما يهتم في إبراز أعمدة الشعر الثلاثة ودورها في التعبير عن أفكاره ومشاعره وهي: اللغة والموسيقى والمضمون. يمكننا القول إن الشكل الشعري ليس مجرد وزن محدد، لكنه نوع من البناء قابل للتجديد والتغيير، وشكل القصيدة ليس قافيتها وبحرها وإنما هي كل متكامل. فهي لغة غير منفصلة عما نقول، ومضمون ليس منفصلاً عن الكلمات، فالشكل والمضمون وحدة لا تنفصل في أي أثر شعري.

لا يمكن لإنسان موهوب ومرهف الإحساس، مثل الشاعر مطلق عبد الخالق، إلا أن يتفاعل مع قضايا شعبه ووطنه وهموم مجتمعه وأمته، وأن يتجه مباشرة إلى الجماهير العريضة بوعي وشجاعة، فقد اتّسم شعره بالوضوح والمباشرة، إلى جانب رقة الموضوع ورشاقة الكلمة ورصانة النظم، مما جعله يلهب السامعين. لقد استخدم اللغة المناسبة في المواقف المناسبة، ليترك في نفس المتلقين تاثيرًا كبيرًا يجعلهم ينفعلون ويتفاعلون مع موسيقى الكلمات ورقتها وعذوبتها.

تعتبر اللغة أداة تعبير عن الأفكار والأحاسيس والعواطف، وقناة اتصال وتواصل مع الغير. ولكن لا بد أن يكون للشاعر فرديته واستعماله الخاص للغة، لأن اللغة ملك لكل الناس، ولكن ليس كل امتلاك بالضرورة إعادة الترتيب والتنظيم، فالشعر يمتلك اللغة كما يمتلكها كل الناس، ولكنه يعيد تنظيمها. بحيث تخرج في اتساق أو سياقات يتوفر فيها الجمال والقدرة على التوضيح والوضوح (صلاح عبد الصبور)[1].

كان الشاعر مطلق عبد الخالق شاعرًا لم يكتمل نبوغه، يدرك جيدًا أن الشاعر تشكيل لغوي في النهاية، وأن كل المشاعر والأحاسيس والأفكار والمعاني تظل عناصر غير شعرية حتى تتشكل في تركيبات وأبنية لغوية خاصة، وأن اللغة في العمل الشعري ليست أداة توصيل فحسب، وإنما هي أداة إبداع وخلق، ولهذا كله حرص الشاعر مطلق عبد الخالق على أن يرهف لغته ويشحذها

[1] مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الأول، اكتوبر، 1981.

وينجز فيها الطاقات التعبيرية مما يمكنها من استيعاب رؤيته الشعرية بكل ابعادها المتنوعة، وتجسيدها تجسيدًا فنيًا.

اهتم مطلق عبد الخالق باللغة في ديوانه الشعري " الرحيل" اهتمامًا كبيرًا سواء على مستوى المفردة الواحدة أو على مستوى التركيب، فشحن مفردات معجمة بطاقات إيحائية بالغة الثراء.

وقد وظف مطلق في ديوانه الإمكانيات اللغوية التقليدية توظيفًا شعريًا ناجحًا، ففي أكثر من قصيدة يستخدم التكرار لأداء وظيفة فنية خاصة للإيحاء بأن القصيدة دائرة نفسية مغلقة، حيث يعود في نهاية القصيدة إلى نقطة البدء التي انطلق منها عن طريق تكرار العبارة التي افتتح بها، كما في قصيدة "دمعة على الوطن[1] :

دمعـــة حـــرى علـــى وطـــنٍ خطبـــــــه، والله آلمـــــــني
دمـعـــة، الـطـهـــر لُـحـمـتـهـا وســـــداها الحـــــب للـــــوطن

واحيانًا يمتد التكرار كما في قصيدة "الضحايا" التي اختتمها الشاعر بنفس البيت تقريبًا الذي افتتحها به وهو[2] :

الضـــــحايا معنـــــاهم الشـــــهداء الألى بعـــــد مـــــوتهم أحيـــــاء
والضحايا لولا الخلود لكانت هـــي والميـــتين حتفًـــا ســـواء

في قصيدة "على فراش المرض" يكرر الشاعر كلمة "أموت" أكثر من ست مرات، ويبدع في توظيف التكرار بالنسبة للتراكيب، حيث يتصرف فيه فلا يغدو تكرارًا نمطيًا جامدًا (repetition) وإنما يتنوع من وضع إلى آخر مشحونًا في كل موضع بإيحاءات جديدة. في قصيدة إلى "حبيب الروح" يتكرر تركيب "حين كانت" أكثر من تسع مرات وعبارة "ياحبيبي كم" أكثر من خمس مرات.

---

[1] الرحيل، دمعة على الوطن، ص 23.

[2] الرحيل، الضحايا، ص47.

وفي بعض الأحيان يكون التكرار تكرارًا نغميًا، لا يكرر فيه الشاعر كلمة أو عبارة، وإنما يكرر إيقاعًا نغميًا، وفي مثل هذا الموقع تكون وظيفة التكرار موسيقية أكثر منها دلالية. في قصيدة "عرب طبعون" يقول الشاعر[1]:

في كريم المرابع وصميم الأجارع
إيه صرعى المطامع وضحايا الفظائع

إن كلمتي" الأجارع" و"الفظائع" إنما هما تكراران نغميان لكلمتي "المرابع" و"المطامع"، والتكرار هنا يؤدي وظيفة موسيقية. والتكرار في بعض قصائد هذا الديوان الرحيل، جاء لتوكيد المعنى، وإثراء موسيقى القصيدة، فكلمة "أنشد الشعر" في قصيدة "تحية الشهداء"[2] تظهر في السطر الاول، والحادي عشر، والتاسع عشر والسابع والعشرين. وكلمة "النفس"، التي تحتل مكانة خاصة ومؤثرة في سياق قصيدة " تحية الشهداء" من حيث التضحية بالنفس في سبيل الوطن، تكررت لتثير عواطف السامعين، وتشحذ عقول القارئين، في السطر السادس، والثامن، والعشرين، والرابع والثلاثين.

بينما يحيي الشاعر مطلق عبد الخالق الشهداء ويقدس غاية استشهادهم، يناشد الأمة العربية أن تنهض من سباتها، وتثور في وجه المستعمر الإنجليزي، ولذلك يكرر استعمال كلمة "العرب" عدة مرات حينما يقول في قصيدة "تحية الشهداء"[3]:

أنشـــد الشـــعر وحـــي الشـــهداء وأجد فيهم، أخا العـرب الرثـاء
أنشد الشعر، أجب من نسبوا قومـــك العـــرب عبيـــدًا وإمـــاء
نحـــن مـــن يعـــرب فينـــا شمـــم وبرئنـــا– مـــذ برئنـــا– أوفيـــاء
أنشد الشعر، أجب مـن نعتـوا الـــ يعـرب نعتًـا كـان سـخفًا وهـراء

[1] الرحيل، عرب طبعون، ص162.

[2] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

[3] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

يـــا يـــد الأقـــدار ظلـــي ســـجّلي من بني العـرب ضـحايا شـهداء

ويظهر توظيف التكرار إلى درجة كبيرة من التأثير الوجداني والتعمق الدلالي معًا. ففي قصيدة "ممرضة" تتكرر كلمة "وأراك" عدة مرات[1]:

وأراك في غلـــس الظـــلام وبكـــرة فـــأروح أســـتجليك في وجـــداني
وأراك في زهرة الحديقة وردة مزهـــوة الأشـــكال والألـــوان
وأراك في فرحـــي وفي حزنـــي وفي ألـــي وفي ســـري وفي إعلانـــي
وأراك روحًـــا في الحيـــاة مجـــردا مـــن جســـمه وحقـــارة الأبـــدان
وأراك لحنًـــا في ســـماء تخيلـــي أو لـيس سـر الطـير في الألحـان
وأراك في هـــذي الحيـــاة قصـــيدة ســـحرية الألحـــان والأوزان
وأراك مـن خلـل الوجـود صـحيفة بيضـاء رغـم تعاقـب الأزمـان

وكذلك فإن تكرار مجموعة من الإيقاعات والأفكار بشكل مكثف على نحو يتمخض عنه شحن الروح الغنائية في القصيدة بدلالات معينة، والتأثير عليها من شأنه أن يحدث في المتلقي التأثير المطلوب عن طريق التشابه الحميم بين الصوت والمعنى. ففي قصيدة "بين أشباح الظلام" تتكرر عبارة "أشباح ليلى" كثيرًا، فتترك الأثر القوي لدى القارئ، فالليل نجده يشع بكل معاني الوحشة والرهبة والقوة[2]:

أرى بعـــيني أشـــباحًا مجنحـــة في الليـل أجنحـة تبـدو كأذيـال
رأيت أشباح ليلى قد بدت صورًا من العفاريت.. في آلاف أشـكال
أشباح ليلـى! تعـالي، إنـني شـبح علـى مثالـك أشـكالي وأحـوالي
أشباح ليلى! كفى! روحي معذبـة وقـد تبينـت أقـوالي وأعمـالي
أشباح ليلـى! أرى نفسـي علانيـة كمـا أراك تقاسـي شـر أهـوال

[1] الرحيل، ممرضة، ص166.

[2] الرحيل، بين أشباح الظلام، ص 36.

أشباح ليلى! لماذا أنت صامتة؟ أتسخرين بآلامي وأقوالي؟
أشباح ليلى! مناجاتي وعاطفتي قد هامتا بسناك منذ أجيال
أشباح ليلى! إليك الشعر من شبح يرنو إليك بإكبار وإجلال

فالليل هنا نجده يشع بكل معاني الوحشة والقوة والرهبة. ونلاحظ جليًا أن الشاعر يخاطب الأشباح وكأنها إنسان ينبض بالمشاعر والأحاسيس، وهذا ما يسمى بالتشخيص (personification). وهكذا يشحن مطلق عبد الخالق مفردات معجمه بدلالات شعرية بالغة الثراء والتنوع. ويفجر في اللفظة الواحدة طاقات تعبيرية خلاقة، بحيث تظل اللفظة جديدة دائمة وحيوية، فكلمة "وطن" يستخدمها الشاعر في مواقع مختلفة بدلالات متنوعة وإيحاءات مختلفة، فمثلاً في قصيدة" دمعة على الوطن"[1]:

دمعة حرى على وطن خطبه والله آلمني
وطني، والله أعبده وأفديه مدى الزمن
وطني أقوت مرابعه وعرته هزة.. الوهن
وطني أصباحه ظلم وأماسيه تؤرقني
أرق.. قد حار في وطن ساغب حران ممتهن
دمعة، الطهر لحمتها وسداها الحب للوطن

هنالك كلمات تدل على حالة الحزن والبؤس، ضمنها الشاعر في قصيدة "تحية الشهداء"[2]:

خلفت من بعدها أفئدة صهرت حزنًا وبؤسًا وشقاء

فالشعر تعبير عن الأنين، وعن لحن ونشيد، وبعث الزفرات، وتعبير عن الآلام التي تجلب العزاء والسلوى، في ذات القصيدة يقول[3]:

---

[1] الرحيل، دمعة على الوطن، ص24.

[2] الرحيل.تحية الشهداء.ص11.

[3] ن.م، ص11.

وأنفـــث الآلام حـــرى كبـــد إن في الآلام ســـلوى وعـــزاء
أرسل الشعر أنينًا صامتًا وابعـث اللحـن نشـيدًا وحـداء

يحسن الشاعر استخدام الطباق في الصفات والمواقف[1]:

فـــإذا شـــقوة يليهـــا هنـــاء وإذا ظلمـــة يليهـــا ضـــياء
بؤســنا! نفـيض بالــدمع حزنًــا غــير أنــا ببؤســنا ســعداء
أنا ما كنت في حياتي شقيًا بــل ســعيدًا تحفــني نعمــاء

ثم يقول[2]:

قــد غــدرتم ونقضــتم ذممًــا فجزينـــــــــاكم ودادًا وولاء
أيها القوم دخلتم حلفاء وملكـــتم فغـــدوتم خصـــماء
عجــب الــدنيا! قصــارى همهــا أن تــرى خــير بنيهــا أشــقياء

يلجأ الشاعر في بعض قصائده إلى استخدام الترادف لتأكيد المعنى وتعزيز الدلالة، ففي قصيدة "تحية الشهداء" يقول[3]:

وامــلأ الــدنيا حنينًــا وجــوى وفــم الــدهر مــديحًا وثنــاء
إنها تحوي جسومًا حملت في حناياهـــا مضـــاءً وإبـــاء

فكلمتا "مديحًا" و"ثناء"، وكلمتا "مضاء" و"إباء"، جاءت فقط لتخدم معنى التحية التي يزجيها الشاعر للشهداء الذين استشهدوا في معارك ضد الإنجليز. وفي قصيدة "غزل صوفي" يعرف الشاعر مفهوم الشعر بأنه خيال وسمو وروح[4]:

---

[1] الرحيل، يا أخي، ص31.

[2] الرحيل، تحية الشهداء، ص12.

[3] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

[4] الرحيل، غزل صوفي، ص 39.

يـــا حبـــيبي نحـــن في الشعـــ ر خيـــــــــال وســـــــــناء
يا حبيبـي نـحـن فـي الـفـــ ن خلـــــــــود وبقـــــــــاء

وتتكرر في هذه القصيدة كلمة "يا حبيبي" ست مرات، أما في قصيدة "يا أخي" فتزدحم الطباق وتتكرر لكي تترك في نفس المتلقي زخم المتناقضات التي تتجلى باستعمال اللغة بصورة دقيقة ومهيمنة على النفس والوجدان[1] :

فـــإذا شـــقوة يليهـــا هنـــاء وإذا ظلمـــة يليهـــا ضـــياء
واذانا نموت حينًا ونحيا واذانـــا بموتنـــا أحيـــاء
بؤســاء !نفـيض بالــدمع حزنــا غـــير أنـــا ببؤســنا ســعداء
يــا أخـــي هكــذا الحيــاة شــجون وفـــراق نخافـــه.. ولقـــاء
يــا أخـــي قــد تــلا اللقــاء فــراق فمتـــى يتبـــع الفـــراق لقـــاء؟

والتكرار يتوالى جليًا في جميع قصائد الديوان تقريبًا. ففي قصيدة "حياة قلب" تتكرر كلمة "رقادك" اربع مرات، وكلمة "قلبي" تكررت تسع مرات، وكلمة "الحياة " تكررت سبع مرات وكلمة "حبك" مرتين.

في قصيدة "إلى روح جلالة الملك علي[2]" يؤدي تكرار هذه الرابطة الصوتية والنغم إلى انسجام شجيّ، وهو ما يسمى بالإنجليزية (Assonance)، أي التشابه والتجانس في أصوات حروف العله الداخلية، وهي وسيلة ناجحة يستعملها الشاعر للتأثير على نفسية السامع والمتلقي، وتسمى في العربية "التوازن العليّ"، ونجد في البيت الثاني عشر: "حال، جمال، جلال"، وفي الخامس والعشرين "وخلود الروح يا روح". ولعل هذا الترابط الموسيقي يفسر لنا سهولة حفظ مثل هذه الأبيات.

---

[1] الرحيل، يا أخي، ص 29.

[2] الرحيل، إلى روح جلالة الملك علي، ص 139.

تكتسب القافية إيقاعها عن طريق التكرار، فلولا التكرار لما كانت قافية، وما كان إيقاع، وهكذا تكتسب الكلمات في تكرارها سحرًا إيقاعيًا كما يستطيع الشاعر أن يثير فينا الإحساس بسحر الإيقاع، يكرره في قصيدته، وكثير من أنواع البديع اللفظي كالجناس والتصريع ورد العجز على الصدر، والتضمين وغيرها ألوان أخرى من ألوان الموسيقى غير المباشرة تؤدي الدور نفسه الذي يؤدي به التكرار، فشاعرنا مطلق عبد الخالق يضمن القصيدة "ضحايانا" بآيات قرآنية وأبيات شعرية[1]:

ألا يـــا ليتنـــا كنـــا ترابـــا إذا لم ينبـــذ الســـيف القرابـــا
"ألستم خير من ركب المطايا" غـــداة الـــروح والخيـــل العرابـــا
ومـــا نفـــع الضـــخامة في جســـوم إذا أرواحنـــا كانـــت خرابـــا
ومـــن يظلـــم بريئـــًا مـــات غمـــا وأضـــحت داره فقـــرًا يبابـــا
ضـــحايانا! ســـلامًا مســـتطابًا أرجعـــه دعـــاء مســـتجابا

كما يكثر الشاعر مطلق عبد الخالق من استخدام الترادف لتأكيد المعنى وتعزيزه في نفس المتلقي، ففي قصيدة "تحية الشهداء" نقرأ في السطر الثاني مديحًا وثناءً، وفي الخامس مضاءً وإباءً، وفي السابع نشيدًا وحداءً، وفي التاسع حنينًا ونجاءً، وفي العاشر سلوى وعزاء، وفي الحادي عشر جثثًا وأشلاء، وفي الثاني عشر حزنًا وبؤسًا وشقاء، وفي الثامن والعشرين إفكًا وزورًا وافتراء. ومما يدل على تطويع اللغة لأغراضه وأهدافه الشعرية، يستخدم الشاعر في نفس القصيدة الطباق لتعزيز المعنى وتقوية أثره وتأثيره على نفس المتلقي، إذ نقرأ في السطر الثالث صباحًا ومساءً، وفي السطر السابع عشر خير بنيها أشقياء، وفي الرابع والعشرين وبني الدنيا والسماء، وفي الخامس والعشرين ظلمةٌ وضياء.

اما تكرار الحروف فإنه يملأ قصائد الديوان، فحرف "الواو" يتكرر كثيرًا في معظم مطالع أبيات القصيدة (صدر البيت).

[1] الرحيل، ضحايانا، ص 54.

يتكرر الحرف حوالي عشرين مرة في قصيدة ,هوان الحياة"، أما في عجز البيت، فيتكرر حرف الواو اثنين وعشرين مرة، وأحيانًا يظهر حرف الواو في مطلع الصدر ومطلع العجز. أما تكرار حرف" الميم"، فهو مسيطر على الكثير من قصائد الديوان، فمثلاً في قصيدة "إلى روح جلالة الملك علي" جاء[1]:

وأمـــان ليـــت شـــعري أم منايـــا ساخرات، أم ضـلال في ضـلال
وأمانـينـا دروب مـن هـبـاء ومنايانـــا جســـور الانتقـــال

أما في قصيدة " يا ليل" فالتعبير "يا ليل" يتكرر ست مرات، حين يناجي الشاعر الليل متسائلاً بلوعة شديدة وإحساس مغلف بالفراق والأسى، فالليل في نظره قاسٍ يحتفظ بالحبيب بين غياهب الظلام، ويدع الحبيب يتساءل ويستعطف عساه يحظى بالمحبوب الذي طالما انتظره وطال انتظاره[2]:

يـــا ليـــل أيـــن حبـــيبي هـــل غـــاب بـــين النجـــوم
أم طـــار كـــالعـــنـــدليـــب أم هـــبّ مثـــل النســـيم؟
يـــا ليـــل أيـــن حبـــيبي أبثـــه نـــار حـــبي
ولـــــوعتي ونحـــــيبي وانتشـــــيه بقلـــــبي
يـــا ليـــل زاد شـــجوني يـــا ليـــل زال شـــبابي
يـــا ليـــل رد حبيـــي لقـــد أطلـــت عـــذابي

والليل أيضًا يلعب نفس الدور في قصيدة "ذكريات نيسان"[3]:

وافترقنـا - يـا ليـل - حينًـا واضـحى ألـن الـبين ضـاربا بـالجران

---

[1] الرحيل، الى روح جلالة الملك علي، ص 139.

[2] الرحيل، يا ليل، ص 172.

[3] الرحيل، ذكريات نيسان، ص 124.

وديار الأحلام شطت.. وأمسى كـل مـا كـان.. عرضـة النسـيان
وعفـا الحـب: لا الأغـاني أغـان حين عفى.. ولا الأمـاني أمـاني
والليـالي– يـا ليـل– لم يبـق منهـا غير "ذكرى" تفيض بالأشـجان

وحرف إن في قصيدة "نسمة الوطن" يتكرر اثنتي عشرة مرة، ليؤكد معنى الانتماء للوطن ومفهومه، والالتزام بالمحافظة عليه والدفاع عنه[1]:

إنهـا البرد في لظى إنهـا الحـر في عـدن
إنها قبسة الهوى إنهـا سـنة السـنن
إنهـا آه ويحكـم إنهـا نسـخة الـوطن
أنـا يـا مـوطني شـبح مـا لغـير الحمـى أحـن
إنـه الحـب مـوطني إنـه الحـب مسـتكن

أما في قصيدة "زفرة على فيصل" فكلمة الله تتكرر ست مرات وكلمة يا خمس مرات. إنها قصيدة مباشرة كمعظم قصائد ديوان (الرحيل)، وفيها يخاطب ويناجي ويفخر بالملك فيصل، ويصف حال الدنيا بعد فراقه وانتقاله إلى الرفيق العالي، إنها قصيدة تأبينية يستخدم فيها حرف النداء يا[2]:

يـا فيصـل الأرواح زاهقـة يـا فيصـل الأيـام تحتضـر!
يا فيصل الأعمار هينة كالـدهر، لا طـول ولا قصـر!
يـا فيصـل الجبـار! معـذرة إنّـا ورب البيـت نعتـذر

كما يستعين باسم الجلالة "الله" ليثبت ما يبثه من لواعج وآهات وزفرات في أعقاب وفاة الملك فيصل[3]:

---

[1] الرحيل، نسمة الوطن، ص 132.

[2] الرحيل، زفرة على فيصل، ص 122.

[3] الرحيل، زفرة على فيصل، ص122.

اللّه! في آياتـــــه عجـــــب	والـــــدهر في طياتـــــه عـــــبر
اللّه! ما الدنيا وفتنتها؟	ما الدهر؟ ما المقدور؟ ما القدر؟
اللّه! والأفكـــــار هائمـــــة	تحتاطهـــا الأشـــباح والصـــور

إن طريقة استعمال اللغة في الشعر السياسي مهمة جدًا لضرورة اختيار الألفاظ ذات العلاقات المناسبة للإيحاءات المنشودة. وقد تولدت في الشعر السياسي العربي في النصف الأول من القرن العشرين كلمات عديدة كررت باستمرار للعلاقات العاطفية والشحنات المعنوية التي تربطها بنفوس المتلقين، ويلاحظ في لغة الشعر السياسي اختيار الكلمات الفخمة الرنانة، فأحيانًا تنتشر فيها ألفاظ الغضب والثورة والعنف والاحتجاج والرفض والتنديد وذلك كقول الشاعر مطلق عبد الخالق في قصيدة "دمعة على الوطن"[1]:

دمعـة حـرى علـى وطـن	خطبـــــه واللّه آلمـــــني
وطني واللّه أعبده	وأفديـــه مـــدى الـــزمن
وطـــني أصـــباحه ظلـــم	وأماســـــيه تـــــؤرقني

وأما في قصيدة "الضحايا" ينشد الشاعر[2]:

الضـــحايا معنـــاهم الشـــهداء	الألى بعـــد مـــوتهم أحيـــاء
سئموا الأرض موطنًا ومقامًا	فغـدت تنتمـي إلـيهم سمـاء
لا يضير الضحايا أن يدرجوا الأكـ	ـــفان مـــوتى وانهـــم أشـــلاء
بســـلاء مـــا استســـلموا لعـــدو	غاشـــم مـــن ورائـــه أعـــداد
خلـــدتهم بطولـــة وارتخـــاص	للمنايـــا وهمـــة تعســـاء

[1] الرحيل، دمعة على الوطن، ص 23.

[2] الرحيل، الضحايا، ص 47.

أما في قصيدة "يوم الهوان" يقول مطلق عبد الخالق[1]:

لهفي على الوطن العزيز يذله وعد العدو وهزة القرضاب
فتح البلاد وقال: أنتم أهلها يا صفوة الأحلاف والأحباب
يوم الهوان، نكأت جرحًا داميًا وآثرت بالذكرى الأليمة، ما بي
ذكراك يا يوم الهوان مريرة ذهبت بميعة صبوتي وشبابي

فعبارات "لهفي على الوطن العزيز"، "ويا صفوة الأحلاف والأحباب"، "يوم الهوان"، "نكأت جرحا داميا"، "وذهبت بميعة صبوتي وشبابي"، كلها عبارات تثير الغضب والتنديد وتستنهض همم الرجال ليهبوا للنجدة وتقديم المساعدة خشية منهم على قدسية القدس ومكانتها. كما أنّ مفردات جرح، دامي، لهفي، ميعة، تحتوي على معانٍ كثيرة تنم عن صيحة احتجاج، لعلها تشعر السامعين والمتلقين بفداحة الحدث الذي ينطوي على خسارة جسيمة، "فيوم الهوان" هو يوم فتح القدس، إذ أدمت تداعيات الجوانح، النفس، والذكرى، والقلب، ويوم فتح القدس هو يوم ذو وجه بارز الأنياب، ويوم عذاب للأهل، وتذكير بفواجع الأشلاء والأسلاب.

كان مطلق عبد الخالق شاعرًا مرتبطًا باللغة الكلاسيكية، وله بها معرفة وثيقة، ولكنه أيضًا كان كثيرًا ما يستعمل ألفاظًا من القاموس العصري الشديد التبسيط، وقارىء شعره لا يمكن أن يفوته هذا الصراع المستمر، ولا ذلك التباين بين الأبيات كهذه التي استعمل فيها كلمات قديمة بائدة وأخرى وصلت لغتها المبسطة حد الابتذال، وذلك استعمال يومي يفهمه كل من يقرأ أو يستمع إليه، فمثلاً في قصيدة "تحية الشهداء"، نرى لغة بسيطة ذات استعمال واسع في الحياة اليومية[2]:

وحـــــرقتم دورنـــــا آهلـــــة فآوينـــــاكم رجـــــالاً ونســـــاءا

[1] الرحيل، يوم الهوان، ص49.

[2] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

أو في قصيدة "حياة قلب"[1]:

وما فات مات فخل الندا مة وانفض غبار السأم

وفي قصيدة "دمعة على الوطن" يقول مطلق عبد الخالق[2]:

خرست لا صوت تسمعه غير صوت القيد والرسن

وأما في قصيدة "يا أخي" يقول الشاعر مطلق عبد الخالق[3]:

وعن الناس لا تسلني، فعندي عنهم ما يضيق عنه الفضاء
يا أخي، إنني وحقك مشتا ق إليك، وعنك مالي غناء

وفلسفة الإنسان البسيط، يضمنها الشاعر في كثير من قصائده، فمثلاً في قصيدة "ضحايانا"[4]:

سألناه السلام فلم يجبنا وما فهم السؤال ولا الجوابا
عبيد المال لا يبغون إلا منامًا.. أو طعامًا او شرابًا

فهنالك لغة بسيطة تظهر ضمن حوار بين اثنين تكاد تكون لغتهما مستعملة في الحياة والمعاملات اليومية، ففي قصيدة "كذب الشعراء" يقول الشاعر[5]:

وملـيح جاء صبحًا ينثني كالخيزران
في يديه وردة حمر اء تزهو كالدهان
قلت أهلا كنـ ـت أرجي من الزمان
قال "قل لي ما الذي تبغيه قله باختصار

---

[1] الرحيل، حياة قلب، ص 20.

[2] الرحيل، دمعة على وطن، ص23.

[3] الرحيل، يا أخي، ص 29.

[4] الرحيل، ضحايانا، ص54.

[5] الرحيل، كذب الشعراء، ص77.

أنـا هـذا اليـوم لـن تلقـا نـــي في هـــذه الـــديار"
قلـــت أبغـــي "قـــبلات إن قلـــبي فيـــه نـــارا
قـــال "ذا صـــعب ولكـــن وردتـــي تهـــدي إليـــك"
قلـت "دعـني الآن والـور د، ودعهـــا في يـــديك
أنـــــا لا أبغـــــي ورودا أنـــا أبغـــي وجنتيـــك

بقي أن نشير إلى تلك المحاولة التي قام بها الشاعر لاستخدام لغة الحياة اليومية استخدامًا شعريًا، حيث استخدم في هذه القصائد بعض العبارات الشائعة في لغة التخاطب اليومي.

من قصيدة "على شهيد الخضر" يستعمل الشاعر لغة غريبة على القارىء تكاد تكون مفرداتها غير متداولة على الإطلاق، ويضطر القارىء للجوء إلى القاموس للوقوف على معنى ومفهوم الكلمة فمثلاً[1]:

وتذكرك الصـافنـات الجيـاد ويـنـدبـك الـقـاع والبـلقـع

وفي قصيدة "عمر العظيم" يقول الشاعر[2]:

يـــا ذا المهابـــة والوقـــار وعـــزة وفتى حمي الأنـف لـيس يضـام
وافى على جمل أجبّ خادم لم تثنـــــه الأوصـــــاب والآلام

وفي قصيدة "زفرة على فيصل" يقول الشاعر[3]:

والكـــون خـلـــو مـــن مـفـــاتنـــه! والـدهـر في أعـطـــافـــه حـــور

وفي قصيدة "في المعرض العربي" يستخدم الشاعر كلمات غريبة غير مألوفة يصعب على المتلقي التعامل معها أو فهمها[4]:

---

[1] الرحيل، على شهيد الخضر، ص 91.

[2] الرحيل، عمر العظيم، ص 107.

[3] الرحيل، زفرة على فيصل، ص 122.

[4] الرحيل، في المعرض العربي، ص 126.

سـائرات– والسـير فيـه معـانِ ملهمات الخطى، ذميلاً ووخـدا
ولي اللّه في الهوى مستضامًا! ولـي اللّه في الهـوى مستسـدا

يكثر الشاعر من استعمال لغة النعوت والأوصاف كوسيلة للتعبير عن شئ ما، أو شخص يرغب في إظهاره وإبرازه بوضوح وجلاء، فمثلاً في قصيدة "كبرياء الحب" يكثر الشاعر من الأوصاف[1]:

عينـاك يـا هـذي شـعاع الضـحى ووجهـك الزاهـي سـناء الأربـع
وأنفـك الأقنـى بـه فتنـة! تـدب في الأحشـاء والأضـلع
وثغـرك البسـام يسـبي النهـى يضـل فيـه النـابغ الألمعـي
وشـعرك الفـاحم في ليلـه كصـدرك الرجـراج في الشعشـع
جميلـة يـا هـذه، حلـوة إن بنتِ في رأد الضحى تصرعي

إن استخدام الصفات والنعوت يدل بصورة واضحة على قدرة الشاعر الفائقة في تخيّر الألفاظ والمفردات واستعمالها بصورة دقيقة وموفقة، فاللغة أداة طيعة يستعملها حيث يشاء، ولأي غرض يشاء، بدون عناء أو مكابدة.

فالشاعر المتمكن من تطويع الكلمة وتسخيرها لأغراضه يحسن استعمالها في مواقع مختلفة وبأشكال عديدة، كظاهرة التكرار على سبيل المثال، فهي تجعل المتلقي يتفاعل مع النص الشعري ويتماهى معه.

كما يستعمل الشاعر مطلق عبد الخالق في البيت ذاته كلمتين متشابهتين في الشكل والمضمون مما يترك أثرًا قويًا لدى المتلقى[2]:

والشـقي الشـقي مـن يظلـم النـا س، فيشـقى بظلمـهِ الضـعفاء
والسعيد السعيد من أسلم الرو ح، وفي قلبـه يشـع الضـياء

[1] الرحيل، كبرياء الحب، ص75.

[2] هذه الأبيات مقتبسة من قصائد مختلفة من ديوان "الرحيل".

دمعـــتي دمعـــة مـــن الأســـى تســيل مـــن المقلـــة الســـاجية
يفكـــر في الـــدنيا تفكـــر ذاهـــل وفي خطـــرات حـــالهن جنـــون
شـــباب العـــرب بـــوركتم شـــبابا أبـــاة الضـــيم في الجلـــى غضـــابا
دنيايـا دنيـا المـوت، دنيـا الحيـاة يـــا كعبـــة الـــرواد والقاصـــدين
تعـــالي إلـــيّ، تعـــالي، أنـــا أحبـــك يـــا فتنـــة الشـــاعر

وكذلك يستخدم الشاعر اللغة، ليتلاعب في الألفاظ ويغير مواقعها ليترك أثرًا على المتلقي، ففي صدر البيت يستعمل كلمتين ثم يستعملهما في عجزه مع تغيير موقعها، كما في قصيدة "إلى حبيبي الروح"[1]:

فـــإذا بـــالزين شـــينا وإذا بالشـــين زينـــا
وإذا بالمين صدقا وإذا بالصـــدق مينـــا
وإذا بـــالأين روحـــا وإذا بـــالروح أينـــا
وإذا بـــالهين صـــعبا وإذا بالصـــعب هينـــا
وإذا بـــالبين قربـــا وإذا بـــالقرب بينـــا
وإذا بـــالعين أذنـــا وإذا بـــالأذن عينـــا

ويوظف الشاعر مطلق عبد الخالق نمطًا جديدًا من مبنى القصيدة وشكلها، فلا يحافظ على قافية واحدة على طول القصيدة، بل يغيرها كل ثلاثة أو أربعة أبيات، ثم يختمها ببيت يشبه البيت الأول في القصيدة، وهذا الشكل الذي يظهر فيه العجز بصورة موسيقية مقطوعة يجعل الشاعر يلتقط أنفاسه ليستريح ويتغنى بأنغام وموسيقى الأحرف الداخلية[2]:

إن كنتُ "سلمي" اذكر البستان هل تذكرين
أيام كنا في الهوى سيان نحي اليقين

[1]. الرحيل، الى حبيبي الروح، ص 66.
[2] الرحيل، هل تذكرين، ص 68.

أيام كنا تحت دوح البان صرعى الحنين
والطير يشدو أعذب الألحان فوق الغصون
والزهر زاهٍ مورق الأفنان بادي الفنون
والبدر ساهٍ ساهم حيران دامي العيون
والليل ساجٍ والهوى نشوان جم الشجون
والقلب سلمى عاشق ولهان هل تذكرين

يستخدم الشاعر مطلق عبد الخالق اللغة التقريرية والخطابية والحماسية ليلهب مشاعر العمال ويحضهم على الكفاح والمقاومة، والمطالبة بحقوقهم، يقول في قصيدة "نشيد العمال"[1]:

بؤساء الدهر يا قوم العبيد يا ضحايا الجوع والموت الزؤام
استعدوا، وحاربوا الخصم العنيد وأشعلوا في القلب نار الانتقام
واهدموا في عصرنا كل قديم وارفعوا على ظهركم نير العذاب
فتقيموا في غدٍ "كونا" عظيم كان بالأمس صريع الاضطراب

ثم ينتقل إلى الخطابة الحماسية، مستعملاً لغة نارية[2]:

أضرم النيران ما دام الحديد حاميًا.. وأضرمه من غير ملال
تحي حرًا ! مطلق الروح سعيدًا وتزيل النير عن ظهر الرجال

ثم يتابع وصف العمال حاثًا إياهم على رفع شعار المقاومة لأنهم يائسون ولا يخسرون شيئًا إن هم واصلوا الكفاح، فلا ينالون حقهم حتى تكون التضحية أحب إليهم من الحياة[3]:

نحن عمال الحياة البائسين متعبي الأجسام أحرارًا، أباة

---

1 الرحيل، نشيد العمال، ص 170.

[2] الرحيل، نشيد العمال، ص 170.

[3] الرحيل، نشيد العمال، ص 171.

والالي يحيون دومًا عاطلين لهـم لا شـيء، في هـذه الحيـاة
فـــإذا مـــا لعلعـــت.. الـــدمار فـوق هامـات العـداة الفـاتحين
واكتســت هــذه الربــى بــالاحمرار تشـرق الشـمس علينـا أجمعـين

فالتأكيد على كلمة حياة يعطي معنى فريدًا ينبئ بأن مع الحياة يكمن البؤس والشقاء، وأن حب هذه الحياة والاستمرار فيها يقتضي التضحية بالروح، ولا يشرق فجر الحرية إلا باللجوء إلى المقاومة. فكلمتا "لعلعت" و"بالاحمرار" تفيدان بصورة جلية الخلفية النضالية التي تنطوي على أكثر الوسائل تطرفًا كاستخدام السلاح في سبيل الحرية.

الموسيقى الشعرية:

أما موسيقى هذا الديوان فهي أبرز ما يتميز به من سمات، فمثلاً كلمتا "جوانحي" "خاطري" في قصيدة "طيف الحبيب"، تقرب بينهما وشائج صوتية، كذلك هناك عوامل صوتية مشتركة بين البيتين الثالث والتاسع في كلمتي "المجنون" و "المكنون"، في النون والواو المدودة والنون، وهاتان الكلمتان تتكرران في البيتين الثالث عشر "مجنون" والبيت الرابع عشر "مكنون"، لعل هذا الترابط الموسيقي يفسر لنا لِمَ لا يصعب حفظ هذه الأبيات. فيظهر أن عنصر الموسيقى هو عنصر هام، لا يستسيغ القارئ العربي بدونه شعرًا.

الشعر إنشاد وليس إنشاء، ومن شأن الشعر حين يلقى في المحافل أن يكون جهيرًا عالي النبرة، محافظًا على إيقاعات صوتية واضحة، وموسيقى محكمة، بحيث تشترك الأذن مع القلب والعقل في الاستمتاع به. إن موسيقى الحروف حقيقة علمية، رغم الجدل الذي قام حول طبيعتها، ولقد أدرك شعراؤنا هذه العلاقة الوثيقة بين أصوات الحروف والأشياء، وتمثلوها في كل قصيدة صدرت عن تجربة صادقة، واقعيًا أو فنيًا. من المعروف أن حرف (الغين) في العربية يكسب الكلمة معنى الاختفاء والتغطية، إذا بدئت به (غمر– غرق)، فإن كانت الكلمات في أصلها تقليدًا لأصوات

الطبيعة، فلا بد أن نربط بين صوت (الغين) ومعنى الاختفاء أو التواري، في قصيدة "دمعة على الوطن"، يقول الشاعر:

مـــاؤه عـــذب، وأربعـــه غضـــة بـــالمنظر الحســـن

وفي قصيدة "تأملات مضطربة"، يقول الشاعر: حوله عسف وطغيان وآمال كذاب. وفي قصيدة "بين أشباح الظلام" يقول:

كـــأنني وســـواد الليـــل يغمرنـــي يم خضم غفا في حضـن أو شـال

وفي قصيدة "صور مضطربة"، يقول الشاعر[1]:

ويـــذهلني فيـــه تخيـــل نفســـه غنيًـا، ولا لـون لهـذا ولا شـكل

وفي قصيدة "الضحايا"، يقول الشاعر:

بســـلاء مـــا استســـلموا لعـــدو غاشـــم مـــن ورائـــه أعـــداء

أما حرف (الحاء) فإنه يعبر عن الصمت والتوحد، بحيث يتواجد الإنسان مع نفسه فيتأمل، ويشرد بتفكيره ويجول نظره بصمت وأناة، ففي قصيدة "يا ليل" يقول الشاعر:

يـــا ليـــل أيـــن حبـــيبي هـــل غـــاب بـــين النجـــوم
يا ليل، وجه حبيبي بـــدر يضـــيء الليـــالي
يـــا ليـــل، مـــن كحبـــيبي في حســـنه والجمـــال
عينـــاه شمـــس الصـــباح وعارضـــاه جمـــان
يـــا ليـــل أيـــن حبـــيبي أبثـــه نـــار حـــبي
ولـــوعتي ونحـــيبي وانتشـــيه بقلـــبي

[1] الرحيل، صور مضطربة، ص41.

يـا للحبيـب ويـا لـي ويـــا لحـــر جوايـــا
ويـــا لرقـــة حـــالي ويـــا لطـــول أســـايا

إن تكرار الحرف أكثر من مرة أو مرتين في نفس البيت من الشعر لهو دليل قاطع على وظيفته الموسيقية التي تهز مشاعر المتلقي، بل أحيانًا ترقصه إلقاءً وشدوًا وغناء. فلنأخذ مثلاً القصيدة الثانية في الديوان "تحية الشهداء"، حيث يتكرر "حرف النون" ثلاث مرات في نفس البيت[1]:

إنهـــا تحـــوى نفوسًـــا أنفـــت أن ترى تحيا على الأرض هبـاء
واملأ الدنيا حنينًا وجوى وفـــم الـــدهر مـــديحاً وثنـــاء
نحـــن مـــن يعـــرب فينـــا شمـــم وبرئنـــا — مـــذ برئنـــا– أوفيـــاء
واســكب القلــب علــى أرماســهم قطــراتٍ واذرف الــدمع دمــاء

فتعاقب صوت حرف النون في كلمتي الدنيا حنينا، وانتهاء البيت بكلمة وثناء، يدل على ما يكنه المواطنون لهؤلاء الشهداء من حنين وثناء في هذه الدنيا والدنيا الأخرى، وتكرار صوت حرف (السين) في البيت الرابع مرتين، لهو دلالة واضحة على ما توحيه كلمات "البكاء" و "النحيب" و"العويل" على الشهيد عند إدخاله القبر (الرمس)، فيسكبون الدموع عليه وهو داخل الرمس عند لحظة الوداع الأخير[2]:

واســكب القلــب علــى أرماســهم قطــرات واذرف الــدمع دمــاء
صعد الزفرات لا تحبسها هــدأة الــنفس، وأطلقهــا بكــاء

فصوت حرف "السين" ينطوي على خشوع وسكينة في لحظة حاسمة ومصيرية. وهذا الحرف مع صوته الذي ينم عن الحزن والأسى، يظهر في البيت الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع

[1] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

[2] الرحيل، تحية الشهداء، ص 11.

والثامن والتاسع والعاشر. إن هذه الكلمات تعبر عن المأساة التي تحل بالشهيد وأهله ووطنه عند استشهاده، فيخلف حنينًا ونفوسًا مقهورة صامتة غير قادرة على الرد، وعلى زفرات محبوسة ومكبوتة تؤدي إلى الأسى والألم الذي يصبح فيما بعد سلوى وعزاء للأحياء[1].

حـــيّ ذكـــراهم وقـــف في حـــيهم ... وتخيلـــهم صـــباحًا ومســـاء
واسكب القلب على أرماسهم ... قطـــرات واذرف الـــدمع دمـــاء
إنهـــا تجـــري جســـومًا حملـــت ... في حناياهـــا مضـــاء وإبـــاء
إنهـــا تجـــرى نفوسًـــا أنفـــت ... أن ترى تحيا على الأرض هباء
أرســـل الشـــعر أنينًـــا صـــامتًا ... وابعـث اللحـن نشـيدًا وحـداء
صـــعّد الزفـــرات لا تحبســـها ... هـدأة الـنفس، وأطلقهـا بكـاء
وابتعـــث منهـــا شـــكاة وأســـى ... وأذبْ فيهـــا حنينًـــا ونجـــاء
وانفـــث الآلام حـــرى كبـــد ... إن في الآلام ســـلوى وعـــزاء

[1] الرحيل، تحية الشهداء، ص11.

الفصل الخامس: ملحق : الكلمات التأبينية

1. شعراء
2. رجالة السياسة
3. أصدقاء
4. جمعيات ومنظمات
5. شخصيات اجتماعية
6. الصحف
7. قصيدة "تحية الشهداء" للشاعر مطلق عبد الخالق

يعتبر مطلق عبد الخالق من الشعراء الذين شغلوا الناس وملأوا الدنيا بشعرهم وفكرهم وثراء ثقافتهم، فشعره ينم عن عبقرية فذة رغم أن القدر لم يمهله لتحقيق أهدافه ومراده، فرثاه أبناء فلسطين بكلمات مؤثرة من شعراء، ورجال سياسة، وأصدقاء، وجمعيات خيرية، وشخصيات اجتماعية.

الشعراء:

رثاه كل من الشعراء، أبو سلمى، إبراهيم طوقان، وديع البستاني، مؤيد إبراهيم، نصر رمضان، أبو سلوى، الأستاذ الأفغاني، الأستاذ بحري، الأستاذ علي منصور، الأستاذ نعمة صباغ، خليل لحام.

قصيدة الشاعر أبو سلمى:

يـا دمعـة الشـعر علـى مطلـق ... علـى الشـباب الناضـر المشـرق
عمر كعمر الزهر يا ليته ... مـر علـى الـروض ولم يعبـق
حتـى بكـى البلبـل في عشـه ... بكـي مـع الريحـان والزنبـق
أمسـك قلـبي كلمـا يفتـدي ... أخ وراء الأفـق كالشـفق
لا أمـل يرجـى ولا عـودة ... إلا الـرؤى في الأفـق الأزرق
مطلـق مـا المـرء سـوى تائـه ... يجـول في الـيم علـى زورق
المـوج مـن جانبـه غاضـب ... والـريح إن تلعـب بـه يغـرق
أنـت تحـررت ولكننـا ... في القيـد يـا مطلـق لم نطلـق
الـوطن الغـالي علـى تربـه ... دم يرويـه ولم نعتـق
والـدم والنـار سـبيلا هـدى ... منارتـا عـز لمـن يرتقـي
أمـا حيـاة مثلمـا نشـتهي ... أو في ربـى الخلـد غـدًا نلتقـي

كلمة الأستاذ الشاعر إبراهيم طوقان:

حضرة الأخ الكريم صبحي عبد الخالق حفظه الله آمين،

انتهز هذه الفرصة لأقدم إليك أجمل التعزية على وفاة الأخ الشاعر الأديب، وقد كان للخبر عندي وقع أليم لما عرفت عن الفقيد العزيز (من نفثات شعره) من روح حساسة وقلب شاعر، وبسبب ما تولده الزمالة ونسبة الأدب من علائق وصلات روحية.

أخي، بودي لو تمكنني أوقاتي من المجيء إلى الناصرة لحضور حفلة التأبين، وبودي لو يتسع الوقت لتحضير كلمة عن الفقيد رحمة الله. فذلك في نظري واجب نحو الأدب والشعر، والأخ رحمه الله من بلابل رياضها.

ويؤسفني وأيم الله ألا أتمكن من القيام بهذا الواجب والعذر عند الكريم مقبول. أسأل الله أن يعوض الأدب والشعر عن الفقيد خيرًا وأن يوسع له فسيح جناته وطيب رضوانه، وأسأله أن يطيل في حياتك ويبعد عنك كل مكروه إنه سميع مجيب.

قصيدة المحامي الأستاذ وديع البستاني

يـا مطلـق – الأمـة في أسـرها ... وكلـها يبكـي معـي مطلقـا
أن تسـل لا تسـلو فتـى خالـدًا ... ولسـت أسـلوك أنـا مطلقـا
وكيـف أسـلوك وبـي لوعـة ... ألقـى بهـا المغـرب والمشـرقا
أنـا ببـابي للقـا واقـف ... وأنـت بالبـاب وعـز اللقـا
ودونـه فـرّق مـا بيننـا ... مفـرّق لم يـدر مـن فرقـا
يـا وقفـتي في الحـي وحـدي أرى ... ومـا أرى والحـزن بـي أحـدقا
أسـأل ليلـى[1] يـا تـرى مـا جـرى ... تبكـي ومـا تملـك أن تنطقـا
وجبـل الكرمـل يبكـي معـي ... والبحـر يـذكي وجـدي المحرقا
ونحـن كنـا اثـنين في واحـد ... أوثقنـا الله بحبـل الشـقا

[1] ابنة الشاعر

وأنــت قــد أطلقــت يــا مطلــق وبــتّ وحــدي بالشــقا موثقــا
تحمــل هــم الأســر حــريتي ويعتــق العبــل ولــن اعتقــا
وأنــت ســلني عــن أبيــك الــذي أودى بــه خطبــك لــولا التقــى
يقــول صــبرًا يــا أخــا مطلــق مــا كنــت مــني بالبكــا أخلقــا
قضــاؤه فــي الخلــق لكنــه مثلــك يــا مطلــق لــن يخلقــا
ولا تســلني عــن أخيــك الــذي كنــت عليــه الوالــه المشــفقا
لا لا تســلني كيــف قلنــا لــه أطلقت يا "صبحي" ومـا صـدقا
كــذبنا حتــى رأى وارتمــى في الـنعش يبغـي بـك أن يلحقـا
مــا مــزّق الأكفــان لكنــه أحشــاءه في صــدره مزّقــا
وأراك وانصــاع إلى ســجنه حتــى يــراه بالأســى أضــيقا
وإن تســل عــن حالهــا أمــة سـلني يجبـك الطـرف مغرورقـا
مــا زادهــا العيــدان في دارهــا إلا دمًــا في عُقرهــا مهرقــا
ونم قريــر العــين واتــرك لنــا مــا أســهد العــين ومــا أرّقــا
نحــن فــدى الأمــة في أســرها نفنــى وللأمــة طــول البقــا

كلمة الشاعر الأستاذ مؤيد إبراهيم:

إن الخسارة بالأستاذ مطلق لا تصيب أهله وعشيرته فحسب، بل إن الأدب العربي في هذه البلاد الفقيرة من الرجال هو الذي خسر علمًا من أعلامه الخفاقة، إني أدعو الله تعالى أن يلهمكم الصبر وينزل شآبيب رحمته على تلك الروح الأنيسة الفياضة بكل معاني الإنسانية والسلام عليكم ورحمة الله.

قصيدة الأستاذ "بحري":

قيـد الـوحي في الحيـاة وأطلـق شـاعر مـن ديـار عبقـر مطلـق
لم يزل بالقريض يسحر حتى حرّك الصخر بـالقريض وانطـق
شـاعرٌ لم يـرَ (الحقيقـة) إلا طلسمًا من طلاسم الغيب مغلق
قـد غـدا سـاخر العواطـف لمـا نشـد الحـق في الوجـود فـأخفق
وتسـامى بـه الخيـال فجـاءت معجـزات حسـابه يـوم حلّـق
سله كيـف العـذاب في الكـون طـرًا فهـو في وصـفه أحـق وأصـدق
غاب والنفس لم تـزل بعـد حـيرى وتوارى عن الـورى حـين أشـرق
جـاد رمسًـا ثـوى بـه مسـتريحًا سـاكب مـن سـواكب اللّه غـيرق

قصيدة الأستاذ الأفغاني:

أيـا عـين لا تبكـي أسـىً وتجلـدي فقد كدتُ أقضي ويك لولا تجلدي
ويا قلب لا تجزع إذا ناب حادث ويا نفس صبرًا للنوائـب واصـمدي
ويـا دهـر جـدّد كـل يـوم مصـيبة فإنّـا ذوو عـزم وإنـا ذوو يـد
وحقك جلّ الخطب فالخطب فادح ولو كـان يفـدى بـالغوالي لأفتـدى
ولكـن قضـاء اللّه في الخلـق سـنةٌ وإن قضـاء اللّه غـير مفنـد
أخي مطلقٌ عفوًا فقد خـان منطقـي وعقّ بياني بعد مـا كـان مسـعدي
فأنـت أخـي روحًـا وقلبًـا ومقصـدًا وأنت أخي في اللّه من قبل مولدي
فمـا كنـتُ أرجـو أن أراك مشـيعًا وحولـك جمـعٌ بـين بـاكٍ ومنشـد
وما كنـت ادري أن أرى لـك راثيًـا وكـان بـودي أن تطـوف بمرقـدي
تجلّد أخي صبحي فمطلق لم يمـت فما مـات ذو علـم وفضـل وسـؤدد

قصيدة الأستاذ علي منصور:

دار بهـا يشـقى الأديـب ويوثـق ... اذهب، فإنك أنـت منهـا مطلـقُ
"الشاه" فيها خائف مترقب ... فلقـد يجرعـه المنيـة "بيـدق" [1]
كم قد شكوت أناسها، نم استرح ... فـاللّه أرأف بالأديـب وأرفـق
في كل مليون وأكثر منهمو ... فـردٌ بمكنـون الحقيقـة ينطـق
هم أتعبوك بقولهم وبفعلهم ... لم يتقوا، لم يرفقـوا، لم يشـفقوا
أحسنت أنت بما نظمت لينعموا ... إن الأديب على الـورى يتصـدق
ويلاه، من أرثي، أأرثي مطلقًا ... ذهب البيـان إذن وضـاع المنطـق
الأربعون مضت ودمع محاجري ... يزجـي الرثـاء الحـق إذ يتـدفق
وا لوعتاه عليك في شرخ الصبا ... منـا تفـرُّ، كمـا يفـرّ الزئبـق
إني كرهت العيش مثلك في حمى ... أحشـاؤه مـن حزنـه تتمـزق
كم قد نعمنا في الدفاع سوية ... بل كم قد شقينا والنوازل تطبـق
والهاتف المحزون يوقر سمعنا ... والنائبـات علـى الـرؤوس تحلـق
يا مطلقًا من أسرها، أنا شيق ... للقـاك في دار البقـا، أنـا شـيّق
يا صاح أنظرني، فيومي لم يحن ... وإذا سـبقت فـإنني بـك لاحـق

زجل الشاعر الشعبي خليل اللحام:

يـا مطلـق كيـف أرثيـك؟ ... يـا صـاحب القلـم البـاهر
بفنـك مـين يجاريـك ... أقـدر أديـب وشـاعر
فلسـطين حزنـت لفقـدك ... وإخوانـك نكبـو فيـك
لمـا تكتـب مـين مثلـك ... "خليـل" بدموعـه بيرثيـك
جـرأة ومبـدأ عظـيم ... كاتـب، خطيـب، صحافي حـر
طـاهر وقلبـك سـليم ... ذقـت الحلـو، وذقـت المـر
قضـيت حياتـك جهـاد ... في القلـم والخطابـة
شـوف إخوانـك في الـبلاد ... الكـل صـابهم كآبـة

كنـــــت تكـــــره الاســـــتعمار وتـــــدافع عـــــن بـــــلادك
ركـــــــن الأدب والله انهـــــــار عـــــدم فنـــــك وجهـــــادك
كـــان لـــك شـــهرة وافتخـــار وكانـــت نفســـك عفيفـــة
لا بتمسـح جـوخ يـابن الأحـرار ولا بتركـــض ورا وظيفـــة
يـــا مطلـــق ضـــحيت كـــثير ولوطنـــك كنـــت تســـاعد
صـــحافي وشـــاعر كـــبير بقلمـــك ونفســـك تجاهـــد
يـــا مطلـــق كيـــف العمـــل؟ كنـــت لنـــا رمـــز الأمـــل
لمـــا رثيتـــك بالزجـــل ارتفـــع شـــأن الزجـــل
مشـــيئة الله مـــش باليـــد يـــا خســـارة علـــى فقـــدك
مســـكنك جنـــة الخلـــد والمـــولى راضـــي عنـــك
كنـــت الشـــاعر الأديـــب كنـــت الصـــحفي الراقـــي
لفقـــدك كـــل منـــا كئيـــب مثلـــك مـــا عـــدنا نلاقـــي
أملنـــا بالشـــهم الغيـــور فخـــر آل عبـــد الخـــالق
الأســـتاذ "صـــبحي" الجســـور صـــاحب المبـــدأ الخـــارق
يـــا صـــحبي هيـــك الله أراد الفقيـــد عـــز علينـــا عمـــوم
ثـــابر علـــى الجهـــاد وغـــير المـــولى لا يـــدوم

رجال السياسة

كلمة قنصل العراق في فلسطين:

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإني أشكركم مزيد الشكر على دعوتكم الكريمة إلى الاشتراك في تأبين المغفور له الأديب مطلق عبد الخالق وحسن ظنكم بي. وكان بودي الحضور إلى حفلتكم التي لا شك في أنها ستكون حافلة، ولكني آسف جدًا لعدم تمكني من ذلك في هذه الأيام، وقد رأيت أن أعوض عن الحضور بالكلمة التالية التي تجدونها في الصفحة الأخرى من هذا الكتاب وهي:

نـــذكر بعـــد المـــوت أصـــحابنا ومـــن لهـــم فضـــل علـــى النـــاس
بالخير، والذكرى تداوي الأسى كمـــا يـــداوي العلـــة الآســـي

رحم الله مطلق وكرم مثواه، فقد كان من شباب العرب المخلصين لقضيتهم، وكان شاعرًا انشأت الطبيعة فيه شعورًا حماسيًا، وقريحة متوقدة تنظم الشعر الذي كان إنشاده يبعث في النفوس هزتي الارتياح والإقدام.

عرفت مطلق بالاسم أولا من كتابته وشعره، وعرفته ثانيًا من مجلسه الأنيس وحديثه الطلي النفيس.عرفته شابًا كثير الحماسة والتفكير، وهو متجدد في آرائه الفلسفية وأشعاره الاجتماعية، صريح في مبادئه، ثابت في عقيدته، دمث في أخلاقه، تحبه إذا لاقيته وإن لم تعرفه من قبل: هكذا وجدته فأحببته وقد عز علي فقده، رحمه الله رحمة الأبرار.

كاظم الدجيلي

كلمة العلامة الأستاذ الشيخ أسعد الشقيري

بسم الله الرحمن الرحيم

دعيت لحضور الاحتفال بتأبين المرحوم الأستاذ مطلق عبد الخالق بعد مرور أربعين يومًا على وفاته، وقد حال بيني وبين حضور الحفلة ضعف الشيخوخة وحالة الجو التي انضم إليها بعض العوارض المانعة. وبهذه المناسبة أقدم الشكر للإخوان القائمين بأمر هذا الاحتفال، مثنيًا على علو همتهم ومساعيهم المشكورة المشتملة على تبصرة موعظة لشبان الوطن بأن يتحلوا بحلية العلم والأدب التي ينالون بها الفخر والمباهاة في الحياة والممات. والحق يقال أن الفقيد المحترم كان ممتازًا بأدبه وشعره وأخلاقه، تشهد له بذلك أشعاره اللطيفة وعباراته التي كان ينشئها فما كان يكتب بحثًا ولا يروي خبرًا إلا وينشئ له مقدمة ويتبعه بنتيجة، وله في الكتابة أسلوب بديع من نوع السهل الممتنع، فأسأل الله له الرحمة والرضوان، وسكنى الجنان، ولآله وذوي قرباه وأحبابه الصبر والسلوان، كما أسال الله للجميع اللطف والأمان، وأن يحفظ لنا الأوطان منصورين على الأعداء في كل زمان ومكان، والسلام على كل الحاضرين في البدء والختام.

كلمة الأستاذ أكرم زعيتر

عزيزي صبحي

لم تكن الخسارة في مطلق خسارتك، ولم تكن الفجيعة فجيعتك وحدك، إنها خسارتنا جميعًا وفاجعة الشباب المخلص في فلسطين. قد كان مطلق رضي الخلق، أبي النفس، عف اليد واللسان، وفيًا، وطنيًا، ورجل هذه سجاياه، يؤتسى، ويؤسى عليه.

أعزيك وأعزي نفسي وأرجو أن لا ترى مكروهًا بعد الآن عزيزي.

كلمة الأستاذ جمال القاسم

لئن كانت القيود السياسية تحول بيني وبين شرف مشاركتكم بواجب الاحتفال بتأبين المرحوم الفقيد العزيز، فإن ذلك لن يمنعني من إرسال كلمة شكر لحضراتكم لقيامكم بهذا الواجب، وبه إعلان أنني أشارككم بقلمي المكلوم الحزن والأسى على فقيدنا الذي كان من خيرة شباب البلاد إخلاصا وعملاً. إنني إذ أذرف دمعة سخينة لذكرى فاجعتنا به أقدم لذويه الكرام ولإخوانه وأبناء وطنه تعزياتي القلبية، وأرجو أن يقر عينه وهو في ضريحه ببلوغ أمته جميع امانيها التي كان يعمل رحمه الله على تحقيقها، والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ محمد رفيق اللبابيدي

أخي الأستاذ صبحي

كان أخي مطلق — تغمد الله بالرحمة — أثيرًا لدي، وكنت أحس من قرارة نفسي أن هذه الشعلة المتقدة من الذكاء والنبوغ، تكوّن وحدها كتلة من الشاعرية الملهمة التي تفرض نفسها فرضًا في البيئة الأدبية دون أن تحتاج إلى مُطرٍ أو داعية يطريها أو إلى الإشادة بها، ذلك أن ما كانت تتجلى به شاعرية "مطلق"، ذوب صاف من الشاعر الصادقة التي تتدفق حيث تجد لها متنفسًا، ولقد كان، على انه لم يتلق ثقافته في معهد عالٍ — قويًا في روحه كل القوة، فقصائده ومقطوعاته

تنم عن الإلهام والاسترسال في عمق الفكرة إلى ما امتاز به من صدق في كل ما قاله من شعر منظوم أو منثور.

عرفته في يافا متحليًا بخلال، أنكرت نفسها في كثيرين من أترابه، فهو برم كل البرم بمظاهر الغرور والاعتداء، فكان لا يحجم أن يستفيد ما وسعه من كتاب أو صديق، في خلوته وفي علانيته، يصدق الود، والعهد والوعد. أما شأنه في مظهره فشأن المتصوفه الذين عرفوا قيمة الحياة الفانية، فَسَمَت نفوسهم إلى ما ورائها، كان دليل ذلك في شعره، وآياته فيما يتحدث به ويخوض فيه، عف اللسان والنفس واليد.

وقليلون يعرفون مطلقًا معرفة صحيحة، إنه شاعر كان يقول ما يحسه فيقرأه الناس وهم شتى في أذواقهم، فبعضهم معه وبعضهم ينكرون ما يقال، لما يستغلق عليهم من شعره الصوفي وهو نوع من الشعر تتفلت به لهوات شعراء ترتفع نفوسهم من الأرض إلى السماء، فهم يخاطبون الإنسانية من وراء ستار المادية الصفيق.

جمعيات ومنظمات:

كلمة المعتقلين:

أرسل المعتقلون في مخيم المزرعة في عكا الكلمة التالية إلى أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين المرحوم مطلق عبد الخالق. وقد تليت الكلمة وهذه هي: بعد التحية وصلتنا دعوتكم الكريمة للمساهمة في تمجيد ذكرى فقيد الأدب والشباب المرحوم الشاعر الأستاذ مطلق عبد الخالق وكان بود الجميع — لولا ظروف الاعتقال — الاشتراك شخصيًا بهذا الواجب نحو الفقيد الغالي، الذي شملت خدماته لامته، المعتقلين، فكان لسان حالهم إلى الرأي العام، نكرر لعائلته التعازي ونشاطر المحتفلين احتفالهم بأربعين الفقيد الغالي والله يحفظكم جميعًا.

عن المعتقلين في سجن المزرعة

صبحي الخضرا

كلمة رابطة الشبيبة العربية بحيفا:

سادتي:

يقف الإنسان في مثل هذا الموقف يردد ذكرى عزيز غاب عنه، ويناجي روحًا صعدت إلى خالقها فتمتزج إذ ذاك لوعة الفراق الأبدي مع روعة الذكرى فتتردد في جوانب الضلوع مآثر طويت ومعالم ذهبت.

إن روح الفقيد العزيز ترفرف الآن فوق هذا المكان تتسمع لتلهفاتنا وتأوهاتنا وتناجينا قائلة: تخلد الأخلاق السامية والفضائل النبيلة ولا يخلد أصحابها، وما الإنسان بخالد في الحياة إلا بذكراه وبما يتركه وراءه من الآثار الطيبة الحميدة.

سادتي:

أقف الآن حاملاً رسالة رابطة الشبيبة العربية بحيفا، اعترافًا بفضل الراحل على الرابطة وقيامًا بواجب الوفاء الذي يقدسه المغفور له. لقد روعت الرابطة للخبر المؤلم المفجع وكيف لا والراحل له الرحمة، قد اتصل برابطتنا منذ نشأتها فرافقها في تكوينها وعاضدها في استمرارها وبقائها بقلبه ولسانه وقلمه.

لقد كان الفقيد لأعضاء الرابطة جميعًا الأخ الكريم والصديق الحميم، ولها المعين الأمين إذا دعي لبيّ يحضر جلساتها، للاسترشاد برأيه الصائب بدعوة منها، وهو ليس من أعضائها اسمًا وإن كان منهم فعلاً، كان يشترك في حفلاتها على اختلاف أشكالها ويحاضر فيها، وكل ذلك تشجيعًا لها وتآزرًا معها.

لقد كنت يا مطلق كثيرًا ما تتحدث إليهم عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الاخيرة، كنت تحدثهم عن هذه الدار الفانية وتحلق بهم إلى العلا، إلى الأخرة، فكأن روحك الشاعرة الكبيرة كانت تشعر بما كتب لك من قصر العمر فذهبت مسالمة كما كنت في حياتك، تاركًا في قلوبهم لوعة لا تنطفىء.

إن الرابطة تحفظ لك يا مطلق أجمل الذكرى وأطيبها، وليس أدل على ذلك من أنها كبرت رسمك العالي وعلقته في غرفة هيئتها الإدارية وعليه أبياتك الخالدة الثلاثة التي تمثل حقيقة نفسك وهي:

أنـا مـا كنـت في حيـاتي شـقيًا　　بـل سـعيدًا تحفـني نعمـاء
سـاخرٌ هـازلٌ أمـرّ مسـرورًا　　بحيـاة ألفاظهـا جوفـاء
وجهـتي الله والسـماء طلابـي　　وكـذا المـوت غـادني الغيـداء

فالرابطة التي عز عليها فقدك يا مطلق، ستبقى ذاكرة لك ولصنيعك ما دامت، متوسلة إليه تعالى أن يتغمدك برحمته ورضوانه.

عن الرابطة

المحامي: حنا نقّارة

المبعدون إلى سيشل يعزون بالمرحوم مطلق:

وردت كتب من الزعماء المنفيين في سيشل إلى الأستاذ عبد الرحمن الحاج إبراهيم والأستاذ وديع البستاني، والشيخ يونس الخطيب وغيرهم، وفيها شيء عن حالتهم في الجزيرة التي يسكنون فيها. وفي الرسائل أنهم صلوا صلاة الغائب عن روح المرحوم الأستاذ مطلق عبد الخالق، وقرأوا الفاتحة وبعثوا بكلمة تعزية لشقيق المرحوم الأستاذ صبحي يأسفون فيها على فراق هذا الشاب النابه الذي كان يخدم وطنه بهدوء وإخلاص.

كلمات الأصدقاء:

تعزية الدكتور هيكل

بعث حضرة الدكتور يوسف هيكل بالكلمة التالية إلى الأستاذ صبحي عبد الخالق شقيق الفقيد:

حضرة الأخ الأستاذ صبحي عبد الخالق المحترم.

أذهلني وآلمني ما أصابكم. فقدان الأخ مطلق خسارة للبلاد وللشباب أشارككم الحزن أسال الله أن يلهمكم الصبر والعزاء.

المخلص

يوسف هيكل

كلمة الأستاذ محمد علي الطاهر:

سلامًا وتحية واحترامًا، أما بعد فقد أخذت دعوتكم لحضور حفلة تأبين فقيدنا العزيز الوطني الشهيد السيد مطلق عبد الخالق رحمة الله. وقد كنت أود أن ألبيها بنفسي لو كان الاستعمار يسمح لي برؤية الوطن، أما وحالة الأمة في هذا المأتم الذي لا نهاية له فإنني اشترك معكم بقلبي في إحياء ذكرى الفقيد الغالي وأسال الله أن يعوّض الأمة على فقده بنيل استقلالها والظفر بحريتها، وبطول حياة شقيقه الفاضل، وأن يحفظكم جميعًا من كل سوء والسلام عليكم.

محمد علي الطاهر

كلمة الدكتور داهش بك:

أخي مطلق:

يا أخي إن الأقدار التي فجعتني بك، لهي جبارة عمياء، بطاشة غبياء، لقد صعقت وطاشت أحلامي، وأبيت أن اصدق هذا الخبر المروع المفاجئ. لقد غادرتني قبل مدة وأنت تفيض بالصحة والعافية والآن أصدقني يا أخي أين أنت. حقيرة هي الحياة، وقشاشة لا قيمة لها، أواه ولا معنى تحويه يا إلهي. لقد علمني موتك أمورًا كثيرة كنت أجهلها، وإن تكن بادية للعيان، ولكن بعد ما توارت شمس حياتك القصيرة الأمد هتكت أسرارها، وهنا كانت العبرات، وتصعيد الزفرات، وهنا كان الشقاء الدائم واللوعة الأبدية.

أيها الشاعر انظر الآن قصيدة الخلود بعد إطلاعك على الحقائق السامية، أيها الراقد نم بسكون في حفرتك الصغيرة النائية، ودع الأحزان تجتث روحي وتفري كبدي، أيها الصديق الراحل لقد

خلفت في أعماق روحي كآبة صماء، ولوعة خرساء، يا من تمنيت الموت كثيرًا قد نلت بغيتك، وأنت ما تزال في شرخ الصبا، وعنفوان الشباب.

يا حبيبي الذي توارى عني حتى الأبد، اهنأ حيث أنت الآن في جنان الخلد تحف بك الملائكة الأطهار.

أيها العابر خفف الوطء، فإن من يرقد تحت الثرى هو أخي حبيبي من قضيت فترة من العمر، أنعم بحبه البريء من أية غاية، من ضحّى لأجلي بالشيء الكثير، من بقي على إخلاصه وصفائه، حتى اختطفه مني الموت القاسي والموت قوة لا تقهر.

نم بسكون يا أخي، واهنأ في عالمك المترع بالبهاء، فإن أحلامك التي طالما كانت تساورك في ظلمة الليل وهدأة السحر فقد تحققت، ولن يمضي وقت طويل حتى تراني بجانبك، فإلى اللقاء يا أخي، يا حبيبي إلى اللقاء.

كلمة الأستاذ المحامي أنس الخمرة

عرفت الفقيد منذ سنوات، فعرفت فيه الخلق العالي والتسامح وحب الخير، كان مطلق محبًا للناس لذلك أحبوه ووثقوا به، سطا القضاء القاسي على مطلق فمشت لوداعه الجموع حزينة باكية.

ما كان مطلق أميرًا لتهابه الناس، وما كان مثريًا لينشر عليهم الذهب ليحبوه، بل كان رسولاً للخلق العالي والتضحية، رسولاً للشعر والنبوغ والمثل الأعلى.

كان إنسانيًا، كل ما له من أمل في الحياة هو أن يخدم المحتاجين، ويدخل السعادة على قلوب من حوله وذويه. لم يكن يطمح بشيء إلا ليضيء مملكة الشعر والخيال والجمال. ما سعى وراء مال، بل كان يحتقره ويزدريه، ومن ترفع عن عبادة المال، فقد ارتفع عن مستوى البشر، حتى إنه وهو موظف في البنك العربي لم يستطع إلا أن يظهر احتقاره للمال في قصيدته " يا مال":

يا مـال كـم نثـرت عليـك جمـاجم وعليك كم– يا مال– طاح رقاب
وعلـــى أديمـــك صـــروح زلزلـــت أركانهـــا فـــإذا الصـــروح ببـــاب
وعلى جحيمـك كـم ديـار أحرقـت في غفلـة فـاذا الـديار خـراب
يـا مـال أنـت أخـسّ شـيء منـزلاً عنـدى وأنـت كمـا أراك تـراب
أنـــا للعـــلا أرنـــو فمـــالي مطمـــع فيـك ومالـك في حمـاي ركـاب

كان للفقيد إلمام واسع في الأدب العربي والغربي، وكان شاعرًا لا يبارى، وقد ترك من المخلفات الشعرية ما سيبقيه خالدًا على مر الأيام والسنين.

إن كان مطلق قد مات فذكراه خالدة في نفوسنا لن ننساها.

يا آل الفقيد، لم تكن محبتكم لمطلق تفوق محبتنا له، فوفاته خسارة لنا ولكم، علينا وعليكم، ونحن بحاجة إلى العزاء، فليعزي كل منا الآخر ويردد: ونحن بالجرح والآلام سيّان.

كلمة الأستاذ الأديب محمود سيف الدين الإيراني

يعز علي ويشقّ على نفسي أن أقف هذا الموقف الفاجع، لأرثي صديقًا كان من أعز أصدقائي وأوفاهم، وأخًا من أبر الأخوان وأحناهم، وشاعرًا أديبًا نابغًا، كنا نعقد عليه الآمال الكبار، ونتوسم الخير والقوة والحق في كل ما كان يندّ عن لسانه وقلبه الكبير. إن الكلمات في هذا الموقف الحزين لأعجز من أن تستطيع تصوير فداحة المصاب، وإن هذه الكلمة بالغة ما بلغت من قوة التعبير عن الإحساس الجريح وشعور النفس الأسية، لأضعف من أن تصف مبلغ الحزن على فقيدنا الراحل ورقدة الألم في صدورنا جميعًا.

أيها الإخوان

إني لأذكر – وقد التقت الآن نبضات قلوبنا في خشوع وأسى عند ذكرى الفقيد الغالي الأستاذ مطلق عبد الخالق — إني لأذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي حمل إلينا صبحه الأغبر هذا الخبر المروع: وفاة مطلق... إني لأذكر هذا الذهول العميق الذي استولى عليّ يومئذ، وكان حائلاً بيني

وبين إرسال كلمة عزاء إلى أهل الفقيد، أحاول بها تخفيف هول المصيبة على قلوبهم وعظم الفاجعة بالراحل الكريم.

لقد عرفته إنسانًا شديد الوعي، عظيم الشعور بإنسانيته، وعرفت فيه قلبًا نقي الصفاء، ونفسًا رحيمة، خيرة، وضميرًا حيًا، وعقلاً راجحًا، وإحساسًا مرهفًا بمعاني الخير والحق. من هنا أيها الإخوان تعلو مكانة مطلق الشعرية في نظري: لقد كان شعره وأدبه صورة صادقة أمينة لحياته، وكانت حياته صورة صادقة أمينة لشعره، وما كانت حياته إلا فضائل خير وتسام وطلب تكامل، وما كان شعره وأدبه إلا صدى قويًا يردد هتاف قلبه الكبير وصدحات نفسه المشرئبة إلى الخير.

وبعد، فإذا كانت حياة فقيدنا العزيز وكان شعره وكان أدبه وكانت جهوده جميعًا قد تركت لنا مثل هذا الأمل الكبير، وهذا النور اللامع، فانعم به إذن من أثر طيب، ومعنى من معان الخير ترتبط به ذكرى الراحل الكريم. والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة صديق الفقيد محمد برزق

إن من الأصدقاء من تعرفهم معرفة تمتد إلى عشرة طويلة الأمد، لكنهم إذا غابوا عنك لم تتفقدهم، ولم يخالجك حنين إلى مجلسهم، وإذا جلسوا إليك لا تطرب لمحضرهم مع أنهم لا تشوبهم نقيصة، بل قد يكونون من اكتملت فيهم الفضيلة واستوت لديهم أطيب الخلال، لكن يعوزهم تلك الشعلة الروحية التي هي أثمن ما بين الإنسان والإنسان من الصلات.

عرفت الصديق الأديب "مطلق عبد الخالق" منذ بضع سنوات فكأني عرفته مدى الحياة، فكان إلى أخلاقه الكريمة وشمائله النبيلة، تتقد بين جنبه تلك الشعلة الروحية عرفته وهو يرسل من ذهنه المشرق ومن شعره الروحي أشعة كاشفة تميز حقيقة الحياة من وهمها. وأرى من حق الصداقة علي أن أرثي فيك يا مطلق الصديق الوفي والكاتب الكريم النزعة، والصحفي الذي كان قلمه ملكًا لرأيه، وكان رأيه ملكاً لحياته وكانت حياته ملكًا لأمته وللحق وحده. ألا فنم هانئًا بجوار أكرم الأكرمين، نم هانئًا بما أسلفت مذكورًا بخير ما يذكر به مثلك من الشبان العاملين، وعند الله جزاؤك، والله يتولانا وإياك برحمته فهو أرحم الراحمين.

آراء الصحف:

أسرة "الدفاع" تفجع بأخ وفيّ كريم

تكلم تلفونيا صوت جازع، متقطع الكلمات، يحمل نبأ مريعًا، ها هو الشاب المتسامي في حياته الخاصة، وحياته العامة، يسلم الروح، وهو يقوم بواجبه الوطني، ها هو الشاعر نفسًا، وطبيعة، يدهمه القطار وهو في سيارة خاصة، ها هو "مطلق" الذي ما ترك على هذه الدنيا شخصًا في نفسه أي كره له، يودع هذه الدنيا، في لحظات فيها رضوان الله تعالى عليه أطيب رحماتك.

كان يهم بمقابلة الأستاذ البستاني سعيًا في سبيل إخوانه المعتقلين، فجاءه القدر وهو يقوم بأشرف الأعمال وأخلص الواجبات. سلام كل نفس وفية، طيبة، نبيلة، إلى روحك الوفي الطيب النبيل.

جاء نبأك يا مطلق فلا والله ما استطاعت أنامل مخلص إليك أن تكتب شيئًا سوى بعد ساعات من ابتداء العمل. وأخوك، بل أعز شخص عليك، في المعتقل. ووالداك الرحيمان في غفلة من هذا المكروه، يا رضى الله عليك يا مطلق، ويا فجيعة إخوانك بك يا أكرم الإخوان، شدوك الحنون ها هو ينقطع عن الدنيا، مودعًا أبر والدين عرفنا، وشقيقًا — وارحمتاه كل الرحمة له.

أسرة "الدفاع" من محررين ومراسلين ووكلاء وعمال تتقدم بأصدق تعازيها لوالدي الفقيد وآله وشقيقه الكريم، سائلة المولى جل وعلا أن يلهمهما أجمل الصبر وخير العزاء. آمين.

كلمة جريدة "الكرمل" الغراء

مات مطلق عبد الخالق

فجعت الصحافة العربية في فلسطين أثناء تعطيل هذه الجريدة بفقد شاب كريم من أسرتها ألا وهو الشاعر الخلقي والكاتب الأديب مطلق عبد الخالق أحد أعضاء أسرة جريدة "الدفاع" الغراء.

كان مطلق شابًا، رحمه الله، من خيرة الشبان خلقًا وأدبًا، وكان وطنيًا مخلصًا وشاعرًا رقيقًا مصورًا، فكثر محبوه وأصدقاؤه ولا نعلم أنه كان له غير الباطل عدوا.

ولذلك اعتبرت فاجعته وطنية تألم لها وتوجع منها إخوانه ومعارفه وقراؤه، وشعورًا بالفراغ الذي أحدثته وفاته في عالم الوطنية والإخلاص والشعر.

أعجبنا من والده صبره وجلده فقد كان يعزي شقيق الفقيد وأبناء عمه وأصدقائه على رغم أنه كان شديد التعلق به ويعلق آمالاً كبيرة على مستقبله مما جعله يشعر بعظم الخسارة.

شيعت الفقيد جماهير غفيرة إلى المقر الأخير، بينها وفود حيفا ويافا وجهات أخرى كثيرة. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الجنة وألهم والديه صبرًا وسلوانًا. وألهم السلطة شعورًا طيبًا بوجوب الإفراج عن شقيقه صبحي.

كلمة جريدة "النفير"

في ذمة الله

قبل أن عرف المرحوم المأسوف على شبابه وأدبه الأستاذ مطلق عبد الخالق أحدًا في حيفا أو جريدة في فلسطين عرف صاحب "النفير"، "والنفير" لأنه تولى تحريرها ردحًا من الزمن وسرعان ما اشتهر المرحوم في عالم الصحافة والأدب.

ولذلك تعتبر "النفير" موته في تلك الظروف القاسية المحزنة وهو في شرخ الشباب وملء العافية، وفي طريقه لقضاء مهمة وطنية من أشرف المهمات، كارثة وطنية وخسارة لا تعوض.

لقد تعشقنا المرحوم على التوّ نظرًا لما اتصف به من الصفات العالية والأخلاق الكريمة، وأحبه كل من اتصل به من المحررين والعمال والقراء، وعرف بعفة لسانه ونزاهته وطهارة نفسه، وقد جمع إلى ذلك، كفاءة ممتازة في صناعة التحرير، وأصاب نجاحًا كبيرًا في قرض الشعر، فقد كانت قصائده من النوع السهل الممتنع، كلها عذوبه ورقة ودقة وصف وروحانية علوية تعلو عن مراتب البشر.

لقد كان المرحوم مثالاً يحتذى بين الشباب من حيث الاتزان والحصافة والرزانة، وكنا دائمًا حتى بعد تركه "النفير" فخورين بصداقته، مكبرين صفاته وآدابه. "فالنفير" الحزينة على فقد مطلق، تتقدم إلى عائلته الكريمة بواجبات التعزية مؤكدة لهم أن الأمة بأجمعها حزنت على فقيدهم، وشاركتهم في مصابهم، ونسأل الله أن يرحم الفقيد عداد حسناته ومناقبه وأن يكافئه في الدار

الآخرة، على ما قام به في هذه الدار من جلائل الأعمال، وأن ينزله لديه منزلة الأبرار الصالحين والمجاهدين المخلصين، وأن يلهم الأمة وآل الفقيد جميل العزاء.

كلمة جريدة "اللواء" الغراء

يقيم عدد من الأدباء حفلة تأبين الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة 1937 في الناصرة لمرور أربعين يومًا على وفاة المرحوم الشاعر الشاب الأستاذ مطلق عبد الخالق، وسيلقى المؤبنون قصائد وكلمات مؤثرة في وصف حياة هذا الشاعر ومواهبه وأخلاقه. وهذا الأديب الراحل كان سليم النظرة وديع الخلق رقيق العاطفة، سريعًا إلى نجدة إخوانه وأصدقائه، لطيف الخيال رقيق العبارة، تؤثر في وجدانه حوادث الحياة، فينظمها قصائد جميلة، تنم عن سليقته. ولطالما شاقته المرجة الخضراء، وهاج وجد البلبل الشادي على أفنان الحديقة الغناء، فمع الأدباء القائمين بواجب تأبينه نشترك بذرف دمعة من دموع الأدب والأسى سائلين له الرحمة ولآله المفجوعين بمصابه العزاء.

كلمة جريدة "الصراط المستقيم"

كانت حفلة تأبين المرحوم مطلق عبد الخالق لمضي أربعين يومًا على وفاته بالغة منتهى الروعة والكمال، وقد حضرها كثير من أعيان البلاد وخطب فيها كثير من الأدباء معددين فيها مناقب الفقيد.

وقد كان بودنا أن نكون من حاضريها والمتكلمين فيها لما للفقيد بنا من صلة وسابق عهد ولكن الضرورات حالت دونها: منها أننا لم نعد من مصر إلا هذين اليومين فتراكمت الأعمال علينا ولم نر من القيام بها بدًا.

على أننا نقول كلمة في الفقيد عن معرفة وطول اختبار، وهي أن الفقيد ليس بالآسف على فراق هذه الدنيا وإذا لم يكن من أهلها في شيء. وقد كان هو فيها في عالم روحاني غير عالمها، ولا شك أن التعجيل بالخروج منها كان من أمانيه، فليكن في هذا بعض العزاء لأهله وإن كان فقد مثله شاقًا موجعًا فنسأل الله لهم جميل العزاء.

شخصيات اجتماعية

كلمة الصحافي الأستاذ يوسف سلوم

أغمض الشاعر عينيه ونام فاستراح
نومه نوم سكون وسلام وارتياح
إذ نسى في نومه كل الأنام والكفاح

هذا ما قاله شاعرنا الملهم الذي نجتمع الآن لنخلو إلى نفوسنا نذكره، ونذكر مناقبه، ونذكر الخسارة الكبرى التي فقدناها به، لأنه رحمه الله كان فيه من الصفات الرفيعة العالية ما يعد مثلا أعلى للشباب ولغير الشباب، فبفقده فقدت الوطنية وطنيًا مخلصًا، والأخلاق ركنًا رفيعًا، والبلاد ابنًا بارًا، والشعر قيثارة جميلة ذات صوت فنان بارع مجدد.

كان رحمه الله ذا بصيرة نيره، تستشف الحجب، فكان يرى الحياة والدنيا على حقيقتها العارية بدون هذا الزخرف الذي يخدع الكثيرين ويموه عليهم، فيرتكبون الموبقات والشرور في سبيل عرض زائل، لذلك كان يحتقر كل تلك الأباطيل، ويسمو فوقها بنفسه الشريفة وروحه العالية.ويصيح بالناس قائلاً:

أســـرار هـــذي الحيـــاة مغلقـــة في الجـــد مهـــذارة وفي اللعـــب
إنـــا نلاقـــي الهنـــا في حـــزن كمـــا نلاقـــي الشـــقاء في طـــرب
والـــدهر تلـــهو بنـــا حوادثـــه ونحـــن فيـــه نغـــوص في ريـــب

وهناك القصائد الكثيرة التي أرسلها رحمه الله عن هذا الوطن المنكوب تفيض كلها وطنية وإخلاصًا، وتنطوي على أرق الشعر والعطف والإخلاص الأكيد.

ويهمني أن أسجل ناحية عالية رأيتها واختبرتها وهو صداقته نحو شقيقه صبحي، هذه الأخوة التي يجب أن تكون مثلاً طيبًا لكل شقيقين، فكان إخلاص الواحد نحو الآخر إخلاصًا أكيدًا قويًا متينًا، إن تألم واحد تألم الآخر، إن سرّ هذا سُرّ ذلك، كأنهما توأمان في شعور واحد. إن وفاته أيها القوم خسارة لا تعوض وفراغ لا يُسد.

كلمة الدكتور المجاهد سعيد بك عودة

بسم الله الرحمن الرحيم

لست أعد ما أصاب آل عبد الخالق الكرام موجهًا لهم بحسب، بل إلى آل عبد الخالق من العرب كلهم. فمطلق صديقي هو فقيد الشباب والأمة.

اجل إن مطلق الذي أطلقه الله المبدع من كل شائبة، قلما ينجو منها إنسان في هذا العصر: عصر الغرائب والشوائب، نعم أقول عصر الغرائب، لأنني لا أعلم ولا يستطيع غيري أن يعلم قدرة الله المدهشة التي جعلت "مطلقًا" غريبة من غرائب الدهر أو فلتة من فلتات الطبيعة، أو نابغة ممتازة من نوابغ الشباب، الذين قلّ أن يجود الدهر بمثلهم.

أجل أيها السادة، هذا ما يجعلني أرى التعزية لنفسي وللناس مقدمة على تعزية أهله وأقاربه. وماذا بعد ذلك عساني أن أقول ؟ أقول إنني أغبطك يا مطلق حيث إنك سبقتني إلى دار النعيم، أم أقول إن الآخرة غبطتنا فيك على ما اختطفته إليها منا، فأخذتها إلى عندها لتحزننا وتفرح فيك؟!

حكم باهرة أرادها الحكيم المتعال، وعظة بالغة أرادها الواحد القهّار، ولا راد لما يريد والسلام عليك يا مطلق يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيًا، حيث نراك وترانا فتقر الأعين وتهدأ القلوب ونحن على سرر متقابلين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كلمة الأديب عاطف نور الله[1]

المفروض في من عرف مطلقًا وخبر مطلقًا وأمضى أيامه في عشرة مطلق ورفقة مطلق، أن تكون كلمته عن مطلق شاملة وحديثه عن مطلق لا يخلو وطابه.

لكن الحقيقة وأسفاه – الحقيقة المؤلمة هي أن المصاب الجلل والخطب الجسيم والخسارة الفادحة، والجراحات التي لم تندمل وغير ذلك يجعل من المحال لمن كان على شاكلتي، مكلوم الفؤاد مشتّت الأفكار، حزينًا أبد الدهر أن يبعث بكلمة من منفاه وافية أو أن يعطي الأخوان المحتفلين بذكراه صورة عنه كافية.

إيه مطلقنا العزيز إيه شاعر العاطفة!

عفوك أيها الأخ المجاهد الكريم، ومعذرة يا أخواني المحتفلين بذكراه، إنني أعترف الآن بعجزي عن إيفاء الفقيد بعض ما يستحقه، وسأعمل إذا شاء الله تعالى لتدوين كلّ ما عرفته عنه في سفر خاص، واسمعوا الآن مطلقًا يحدثكم عن نفسه بهذه الأبيات الخالدات التي قالها بمناسبة وفاة المغفور له جلالة الملك حسين وكان عمره 16 سنة وهي والله تناسب أيضًا مطلقًا وهي منه وإليه: (راجع القصيدة في الديوان. ص 237).

أجل إن روح الملك العظيم ولدت في قلوبنا الحقد والبغض، أما روح مطلق العزيز فقد ضاعفت ذلك الحقد وولدت في نفوسنا مكافحة للظلم والظالمين، والمنافقين والمستعمرين، بل حببت لنا الموت والاستشهاد في سبيل الأمة، التي استشهد في سبيلها مطلق وهو يناضل ويجاهد لإنقاذ إخوانه الأحرار المعتقلين والمسجونين. رحمه الله تعالى وألهمنا الصبر على فراقه.

كلمة الوجيه السيد يعقوب فراج

تمنعني أسباب صحية من الاشتراك معكم في الاحتفال بتأبين الفقيد المرحوم مطلق عبد الخالق، فأرجو أن تنوبوا عني بتقديم التعازي الحارة لأهل الفقيد العزيز، مكررًا الرحمة والرضوان، سائلاً المولى عز وجل أن يحفظكم ويعوض الخسارة في شاب ناهض خدم بلاده العزيزة خدمة يقدرها له الجميع. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

تحية الشهداء – للشاعر مطلق عبد الخالق

أنشـــد الشـــعر وحـــيّ الشـــهداء ... وأجد فيهم، أخا العرب، الرثاءَ
حـــيّ ذكـــراهم وقـــف في حـــيهم ... وتخيلـــهم صـــباحًا ومســـاء
واســكب القلــب علــى أرماســهم ... قطــراتٍ واذرف الــدمع دمــاء
إنهـــا تحـــوي جســـومًا حملـــت ... في حناياهـــا مضـــاء وإبـــاء
إنهـــا تحـــوي نفوسًـــا.أنفـــت ... أن ترى تحيا على الأرض هباء
أرســـل الشـــعر أنينًـــا صـــامتًا ... وابعـث اللحـن نشـيدًا وحـداء
صـــعّد الزفـــرات لا تحبســـها ... هـدأةً الـنفس، وأطلقهـا بكـاء

وابتعث منها شكاة وأسى ... وأذب فيها حنينًا ونجاء
وانفث الآلام حرى كبد ... إن في الآلام سلوى وعزاء
انشد الشعر وحيي جثثًا ... مزقت أشلاء ظلمًا واعتداء
خلفت من بعدها أفئدة ... صهرت حزنًا وبؤسًا وشقاء
هذه أم صغار فقدت ... بعلها، تبغي لأطفال غذاء
تسفك الدمعة من مهجتها ... زفرة حرى ونارًا ودماء
يا لها بائسة حائرة ... تكتم البؤس وتخفيه حياء
كفكفي، يا أخت دمعًا حائرًا ... إن في الدنيا سواكِ بؤساء
عجب الدنيا! قصارى همها ... أن ترى خير بنيها أشقياء
ما لها تأتي بما نجهله؟ ... بئس ما تأتي به الدنيا وساء
انثر الشعر، أجب من نسبوا ... قومك العرب عبيدًا وإماء
قل لهم: قد طفح الكيل وقد ... ملّت الأنفس عيشًا وبقاء
قد خدعنا بكم، لكنكم ... قد كشفتم عنكم ذاك الغطاء
أيها القوم دخلتم حلفاء ... وملكتم فغدوتم خصماء
نحن من يعرب فينا شمم ... وبرثنا — مذ برثنا — أوفياء
وسلوا التاريخ عن أمجادنا ... وبني الدنيا جميعًا، والسماء
قد ملكنا الأرض بالعدل ولم ... نك إلا رحماء نبلاء
وانتشلنا الغرب من ظلمته ... ملانا صفحة الكون ضياء
أنشد الشعر، أجب من نعتوا الـ ... ـعرب نعتًا كان سخفًا وهراء
زعموا أنا (وحوش) كذبوا ... وادعوا إفكًا وزورًا وافتراء
إن هذا الزعم لا نعبأ به ... نحن نوليه ازورارًا وازدراء
هذه الصحراء كم قد أنبتت ... من أسود بسلاء كرماء
عشتم الأحقاب في أكنافهم ... وطعمتم بينهم خبزًا وماء
وأجاروكم من القوم الالى ... أمعنوا فيكم نكالاً وجلاء

واذكـــروا مـــا كـــان في أنـــدلس واقرأوا التاريخ واستوحوا الآبـاء
وتعـــالوا الآن نبـــدي لكمـــو أننـــا أصـــفى نفوسًـــا ودمـــاء
هـــذه يافـــا وذي أحـــداثها ناطقـات بالـذي يجلـو الخفـاء
قـــد غـــدرتم ونقضـــتم ذممًـــا فجزينـــــــــاكم ودادًا وولاء
وحـــــرقتم دورنـــــا آهلـــــة فآوينـــاكم رجـــالاً ونســـاء
وزرعنـــــا فـــــيكم مرحمـــــة فحصـدنا مـنكم الشـتم جـزاء
دأبنـــا هـــذا، وهـــذا دأبكمـــو بعُـد الفـرق ومـا نحـن سـواء
يـــا يـــد الأقـــدار ظلـــي ســـجلي من بني العـرب ضـحايا شـهداء

خاتمة البحث

إن دراستي للاتجاهات الوطنية والقومية، وما يتصل بها من جوانب اجتماعية وإنسانية، وفنية، كشفت بعض الأبعاد المهمة التي لم يحظ بعضها باهتمام الدراسيين من قبل، ولم يتضح بعضها الآخر كما أوضحته في بحثي هذا.

تناول هذا البحث فترة متميزة في الثلث الأول من القرن الماضي، هذه الفترة التي ظهرت فيها اتجاهات وجوانب تحتوي على معالم الإبداع الحقيقية، ذات الجذور التراثية والاجتماعية، وكان للأحداث المتوالية، والكفاح، والتضحيات أثر كبير فيها، ولذلك أرى أن البحث يتّسم بأهمية خاصة في هذه الظروف بالذات، لأنه جاء بحثًا أدبيًا شاملاً عن شاعر عاصر الفترة وضحى من أجلها بقلمه ونفسه.

تبيّن أن الشعر الوطني الفلسطيني يشكّل مدرسة في الوطنية والفداء والتضحية، حيث انبرى الشعراء أمثال مطلق عبد الخالق ورفاقه للذود عن الجماهير والوطن، وتمرسوا مع المواطنين في الفداء والتضحية.

تبيّن لي ايضًا أن شعر مطلق عبد الخالق يُعَدّ شعرًا مقاومًا ومقاتلاً، ذلك أن الشعر المقاوم هو الذي يولد في أرض المعركة، وهو يفعل فعل الرصاصة، فينبه الجماهير إلى المؤامرات والمخاطر، ويدعو إلى التعدي لها، والصمود والصبر، ورفض الذل والرضوخ والإذعان، ويستنهض الهمم والتعاون

وإعداد العدة والقتال والفداء وتحرير الوطن. فشعر مطلق عبد الخالق يعتبر سجلاً وافيًا لهذه الأحداث في تلك الفترة.

كما بيّنت بصورة واضحة التزام شعراء فلسطين، ومن بينهم الشاعر مطلق عبد الخالق، بقضايا وطنهم العربي عامة، وفلسطين خاصة. ومن خلال ذلك دلَّلتُ على الدور الكبير الذي أسهم به شعراء فلسطين، وانتهيت إلى أن معظم هؤلاء الشعراء هم شعراء مقاومة وقتال في معركة مستمرة، وأن شعرهم شعر ملتزم بقضايا الوطن والجماهير.

اعتنى شعر مطلق عبد الخالق بالمضمون أكثر من اعتنائه بالشكل، لأن طبيعة المرحلة اقتضت التأكيد على المضامين التي تحض الشعب على المقاومة والتصدي، فاستخدم الألفاظ السهلة الموحية المعبرة عن المعاني المختلفة، وبسبب مخاطبته الجماهير باللغة التي تفهمها، اضطر إلى استعمال تعبيرات شعبية تعود في أصلها إلى اللغة الفصحى.

في مجال التصوير والخيال وجدت أن مطلق عبد الخالق قد استخدم أشكالا مختلفة من التعبير المتخيّل في نقل أفكاره وعواطفه إلى الآخرين دون مبالغة، بغية التأثير فيهم، واستثارة عواطفهم، وبذلك ظل التصوير ملوّنًا بالعاطفة الصادقة.

طغى على شعر مطلق عبد الخالق نمط الشعر الكلاسيكي، الذي كان هو الغالب قبل عام 1948، وهو يشكّل المدرسة الشعرية الأولى في فلسطين. وهذه المدرسة لم تدخل تحويلاً جذريًا في الأشكال الشعرية المعروفة.

من جهتي، فقد بذلت جهودًا مضنية في البحث والتحليل، وذلك لبناء هيكل عضوي كامل لشعر مطلق واتجاهاته، ولعلّ ما توصلت اليه يفسح المجال إلى دراسات جديدة في شعر هذا الشاعر ولعلّ الآراء والأفكار التي نجدها في ثنايا هذا البحث، تكشف جوانب أخرى مهمة ومفيدة.

فهذه صورة واضحة عن البحث، ولا ادّعي الإحاطة بكل شيء، إذ أن الكمال لله وحده، وارجو أن أكون قد وفّقت في ما سعيت إليه، علّ هذا البحث يفيد الباحثين، ويكون إسهامًا متواضعًا في دراسة الشاعر مطلق عبد الخالق.

المراجع والمصادر

1. عبد الخالق، مطلق. ديوان الرحيل. بيروت: دار الأحد، 1938.
2. عبد الخالق، مطلق. ضجعة الموت أدبين أحضان الأبدية. د.م: مطبعة دار الأيتام السورية، 1936.
3. صدوق، راضي. شعراء فلسطين في القرن العشرين. 2000.
4. داهش بك، سليم موسى العشي. ضجعة الموت. ديوان الشعر.
5. حتمية الموت. 1936.
6. عبد الخالق، مطلق. خواطر والآم، مقالات أدبية وتأملات نفسية. 1938.
7. مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الأول، أكتوبر، 1981.
8. بوجان، لويز. الشعر. (ترجمة سلى الخفراء الجيوسي). بيروت: دار الثقافة، 1961.
9. إبراهيم، مؤيد. ذكريات أدبية ما قبل 1948، المواكب 1.2، شباط، 1984، (18–24).
10. قبش، أحمد. تاريخ الشعر العربي الحديث. بيروت: مطبعة دار الجيل، 1996.
11. وليم، اوكونور. النقد الأدبي. ترجمة صلاح احمد إبراهيم. د.م: دار بيروت، د.ت.
12. مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الثاني، يوليو – أغسطس، سبتمبر، 1973.
13. مواسي، فاروق. أدبيات ومواقف نقدية. القدس: نيسان: د.ن، 1991.
14. أنيس، إبراهيم. موسيقى الشعر. القاهرة: د.ن، 1965.
15. سويف، مصطفى. الأسس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة. القاهرة: د.ن، 1969.
16. عبد الصبور، صلاح. وتبقى الكلمة. القاهرة: د.ن، 1970.
17. عياد، شكري محمد. موسيقى الشعر العربي. القاهرة: د.ن، 1968.
18. هلال، محمد غنيمي. الرومانتيكية. القاهرة: د.ن، 1971.
19. إسماعيل، عز الدين. الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره. القاهرة: د.ن، 1967.
20. الأسد، ناصر الدين. الحياة الأدبية في فلسطين والأردن حتى سنة 1950. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.

21. الدقاق، عمر. فنون الأدب المعاصر في سورية. بيروت: دار الشرق العربي، د.ت.

22. ضيف، شوقي. في النقد الأدبي. ط 7. القاهرة: دار المعارف، 1988.

23. أنيس (إبراهيم). موسيقى الشعر. القاهرة: د.ن، 1965.

24. الربيعي، محمود. في نقد الشعر. القاهرة: د.ن، 1973.

25. البستاني، وديع. ديوان الفلسطينيات. بيروت: د.ن، 1984.

26. الجيوسي، سلمى الخضراء. العودة مع النبع الحالم. بيروت: د.ن، 1960.

27. طوقان، إبراهيم. ديوان إبراهيم. بيروت: د.ن، 1975.

28. الكرمي، عبد الكريم. ديوان أبي سلمى. (عبد الكريم الكرمي)، بيروت: د.ن، 1981.

29. الأسد، د. ناصر الدين. الاتجاهات الأدبية في فلسطين والأردن. القاهرة: د.ن، 1957.

30. الدبّاغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. بيروت: د.ن، 1965.

31. السوافيري، د. كامل. الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1926– 1960. القاهرة: د.ن، 1973.

32. البحيري، حسن. لفلسطين أغني. دمشق: مطبعة دار الحياة، د.ت.

33. الحوت، محمود سليم. اللهب الكافر. بيروت: دار الكتاب العربي، 1963.

34. محمود، عبد الرحيم. ديوان عبد الرحيم محمود. بيروت: دار العودة، 1987.

35. شكري، غالي. شعرنا الحديث إلى أين ؟. القاهرة: د.ن، 1967.

36. النويهي، محمد. قضية الشعر الجديد. القاهرة: د.ن، 1964.

37. هيكل، يوسف. القضية الفلسطينية: تحليل ونقد. يافا: مطبعة الفجر، د.ت.

38. كبها، مصطفى. سجل القادة والثوار والمتطوعين لثورة 1936–1939. د.م: د.ن، 2009.

39. علي مصطفى، خالد. الشعر الفلسطيني الحديث. الجمهورية العراقية: وزارة الثقافة والفنون، 1978.

طلعت عبد الخالق
ولد سنة ١٩١٠ - توفي سنة ١٩٣٧

هذا الكتاب

يتزامن صدور هذا الكتاب مع الذكرى المئوية لميلاد الشاعر مطلق عبد الخالق في سنة 1910. كان مطلق عبد الخالق شاعرًا وأديبًا، شابًا كثير الحماسة والتفكير، متجددًا في آرائه الفلسفية، وأشعاره الاجتماعية. كان شاعرًا كثيرًا ما يتحدث عن تفاهة الحياة ولذة الضجعة الأخيرة، وكان يتحدث باستمرار عن الدار الفانية. لقد تمنى دائمًا الموت، فنال بذلك بغيته وهو لا يزال في مقتبل العمر..

أن تلج عالم مطلق عبد الخالق الشعري والشخصي، أمر ليس سهلاً، لأنك تصاب بالذهول والحيرة والارتباك، وذلك لأنه عالم غني واسع ومتنوع، فالإحاطة بالمعلومات حول شخصيته وشاعريته أمر يقتضي محاولة للوقوف على أبعاد وفلسفة هذه الشخصية وولوج فنيّة شعره ومعانيه، فشعره شعر ثوري يصف حركة مقاومة الشعب الفلسطيني ويثريها، فقد كانت مهمته تفجير الواقع السياسي والوطني والاقتصادي والعمل على تغييره...